البدع والخرافات

والتقاليد والعادات

اقتراح بناء مدفن لعظماء الرجال بمصر

نشر في « الجريدة » اقتراح بناء مدفن لعظماء الرجال بمصر تنقل اليه عظام من مات منهم ويدفن فيه من سيموت من بعد

نشر هذا الاقتراح بتوقيع «باحثة بالبادية» وماهو الا خيال باحث في الحاضرة او تمثي متفرنج في العاصمة قد استهجل جداً بهدم تقاليد قومه الدينية ونقلهم من مبادي التقاليد الأوربية الى غايتها

لا أنكر ان بعض العلل التي بني عليها الاقتراح له وجه نظري معروف لمثله وضعت الامم الوثنية من قبل التماثيل والنصب وبنت القبور وشرفتها، وعظمت هذه الآثار المائلة حتى عبدتها، ولكن كان إثمها اكبر من نفعها، وشرها اكثر من خيرها، ولذلك هدمها الاسلام وحرم نصب التماثيل وتشييد القبور وتشريفها كما في حديث علي كرم الله وجهه في صحيح مسلم وغيره «لاتدع تمثالا الا طمسته ولا قبراً مشرفا الا سويته»

ربما قالت باحثة البادية او باحث الحاضرة ان الاسلام ما فعل ذلك الا ليطمس رسوم الوثنية حتى لا تنازع التوحيد في سلطانه على النفوس وهـذه العلة مأمونة في هذا العصر «عصر المدنية والنور عصر المادّية والعلوم» واذا انتفت العلة انتفى المعلول

لقد قال مثل هذا القول أحد طلاب علم الحقوق من أولاد علماء الدين ونشره في تمويد رد على من انكر نصب تمثال لمصطفى باشا كامل وسكت له الجمهور على ذلك ولكنهم لم يلبثوا ان سكتوهم مدفعين

ما سبيل تفنيد هذه الشبهة بعد الاعتراف بصحة ما قيل من سبب تحريم الاسلام للتماثيل والنصب والقبور المشرفة؟ الا اكتفي بأن أقول ان هذه شعائر وثنية منع الاسلام منها لانها تذكر بعبادة غير الله ويخشى ان تعيد روح الوثنية الى نفوس

المستعدين ، فلا تعيد هذه الصورة وان أمنت العلة الآن ، سدًّا للذريعة ولو في مستقبل الزمان ، بل أقول أيضا ان العلة غير مأمونة في هذه الأيام ، لا سيما عند جماهير العوام ، فلو نصبت التماثيل و بنيت الهياكل الخاصة لبعض القبور ، فانها لا تلبث ان تصبغ بالصبغة الدينية بمصر ويتبرك بها او يعبدها الجمهور ، وأستدل على ذلك بأقوال دعاتها وافعالهم

جاء في مقال « باحثة البادية » ما نصه

«والعامة من أهل مصر بل بعض الخاصة لهم ولع فائق بزيارة الاضرحة واعتقاد راسخ بنفع اصحابها حتى انك لو دفنت حماراً و بنيت له ضريحا وقبة لزاره عدد من الناس يتبركون به وهم يعلمون انه حمار فاذا كان الامر كذلك في الحمار فكيف به في الرجال وكيف به في عظمائهم » اه

ونحن نقول مع الباحثة ان عظماء الرجال يكونون أجدر بهذا التعظيم والتبرك وهذا ما يحرمه الاسلام و بعده معارضاً للتوحيد

ذكر باحثة البادية من الرجال الذين تقترح نقل عظامهم للمدفن الجديد محمد عبده ومصطفى كامل وقاسم أمين فتقول كيف نأمن ان تعظم اضرحتهم تعظيما دينياً بعد ان يتخذ لها مكان خاص يقصد بالزيارة والاول منهم إمام من ائمة الدين وداع من دعاة القرآن ومحام عنه وعن السنة ، واقوى خاذل في عصره للبدعة ؟ كيف نأمن ذلك والثاني منهم على كونه ليس من رجال الدين في العلم ولا في الارشاد ، وليس له مقالة تؤثر في الكتاب ولا في السنة ، ولا في الدفاع عن أصول الاسلام وعقائده ، — قد نحلة أشياعه جميع الالفاظ التي يعظمون بها ائمة الدين وأولياءه كقولهم : فقيد الاسلام ، رضي الله عنه ، قدس الله سره ، قدس الله روحه . بل قرن بعضهم ذكره بذكر الانبياء وكاد بعضهم يفضله عليهم . وذكر أخوه الصغير في مناجاة ناجاه بها ان روحه مشرفة على العرش يعني انها فوق عرش الرحمن ! ! وذكر اخوه الكبير من أنباء ولادته نحو ما روي في ولادة النبي صلى الله عليه وسلم من أنه ولد طاهراً مختوناً ، وجعله بعضهم ثاني النبي (ص) في عظمته وكلامه كالانجيل والقرآن . وقال فيه شوقي شاعر الامير

او كان للذكر الحكيم بقية لم تأت بعد لرثيت في القرآن

هذا وهو يعلم ان القرآن الحكيم لم ينزل منه شيء في رثاء الانبياء والصديقين ،

بل كل ما قال في شأن موت من أنزل عليه وهو خاتم النبيين ؟ (٣٩ : ٣٠ انك ميت وانهم ميتون ٣١ ثم انكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون) أي انك يا محمد تموت وهؤلاء المشركون الذين قالوا (٥٢ : ٣٠ نتربص به ريب المنون) يموتون أيضاً ويختصمون جميعاً عند الله تعالى . وقال (٣ : ١٤٤ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفائن مات أو قتل انقلبتم على اعقابكم؟) الآية وقد نزلت عندما ظن بعض المسلمين انهزموا في وقعة أحد اذ صاح صائح « قتل محمد »

أفرأيت من يغلو فيه الناس ذلك الغلو الذي أشرنا الى قليل مما قرأناه فيه ونحن لم نقرأ الا أقل ما كتب — وسكتنا عما سمعنا من بعض غلاة المارقين وما روي لنا عن بعضهم من مثل قولهم انه كان افضل من الانبياء وانه نفعنا اكثر مما نفعنا الاسلام! — أيستغرب ان يعظم تمثاله وقبره تعظيماً دينيا ؟؟

فيا أيها المتفرنجون أربعوا على ظلعكم وخففوا السير واتئدوا بهذه الأمة المسكينة فان مصابها عظيم والخطر الذي يحيط بها أعظم فلا تستعجلوا بهدم ما بقي لها من العقائد والآداب والاحكام الدينية وأنتم لم تبنوا لها ديناً ولا شريعة أخرى أحسن مما جاء به الإسلام ، ولا تستطيعون ان تحفظوا بقية الممالك التي فتحها لكم الاسلام؟

إذا فرضنا ان ما ترمون اليه بالتماثيل ونقل عظام الموتى الى أضرحة عظيمة يزيد في تعظيم أصحابها والتبرك بهم والاقتداء بسيرتهم هو مما يفيد في ترقيتها وفرضنا انه لا يقوي نزعة الوثنية فيها فدعوه الآن لمجرد نصوص أئمة المذاهب التي تنتمي اليها الأمة في تحريم نبش الموتى وتحريم نصب التماثيل مطلقاً وخذوا بالأمة إلى أسباب العزة والقوة التي لا خلاف فيها شرعاً ولا عقلاً وهي كثيرة لا يكاد يدعو اليها داع ، وقلما يجمع لها مال أو يؤلف لها اجتماع ،

ليست المدارس العلمية والدينية ، والكتب التاريخية والفنية ، والجمعيات الخيرية والدينية والادبية ، هي انفع من القبور والتماثيل الوثنية ، فلماذا لا تبذلون لها المال ، وتدعون الى تعميمها في البلاد ، اليست مدرسة مصطفى كامل افضل ما يعزى اليه من الاعمال ، فلماذا لا تبذلون لترقيتها ما جمعتم للتمثال ، اليست آثار الاستاذ الامام ، في اصلاح حال المسلمين والاسلام ، هي افضل ما يحيا به ذكره ، ويرغب في التأسي به ، فلماذا لا تبذلون المال لنشرها ، وتعميم النفع بها ؟؟

الفصل السابع (*)

جمال خديجة والجمال عند قومها

الجمال محبوب لذاته عند الطبع، ومحبوب لفائدته عند العقل، ومع كثرة ما ألفت العيون رؤيته، والآذان سماع أحاديثه، لا تزال أسراره موضوع التفكر، ولا تزال دقائق تأثيراته محل الإعجاب، كيف لا وهو السر الأعظم في جذب الانسان الى مقاماته العلى من الابداع، والسبب الأكبر في ابعاده مابينه وبين الحيوان في مراقي الوجدان والادراك. فشرفه مجمع عليه عند بني آدم بغير خلاف بينهم. وايما قوم حرموه فقد باؤا بحرمان عظيم. ولذلك لم نجد بدًّا من ذكر هذه المزية الاخرى لقوم «خديجة» فانها مزية جديرة بالذكر لا سيما بعد ان اشتهر عند من لم يعرف هؤلاء القوم انهم كانوا الاحظ لهم من الجمال، ولا ذوق لهم في الحسن، ولا نصيب من توجه النفس الى الاحسن.

كبُرت سنّةً أن يكون قوم «خديجة» على مايظن هؤلاء الذين لا يتألف في ذهنهم ان يكون القوم سكان اقليم حار وذوي شظف من العيش ثم يكونوا مع ذلك ذوي خلقة جميلة وصورة بديعة

وكبُر منا تقصيراً ان لا نبين في هذا الباب ما هو من جملة مناقب هذه السيدة وقومها فان استقراب قوم لم يعيروا اسرار الخليقة نظرة تخصيصنا فصلاً لهذا الموضوع فلعلهم سيروننه فيما بعد مكيناً في، وحضه على انه سيجد فيه المتفكرون صاحبهم الانيس، ويجد هو فيهم أهله الكرام

(*) من سيرة السيدة خديجة

ان العرب قد تناسبت أجزاؤهم، وتناسقت أوضاعهم، واعتدلت أشكالهم، بياضهم جميل ليس فيه بهق بعض الاجيال، وأدمتهم لطيفة، ليس فيه حلكة بعض الاقوام، ولعلّ من فازت من حسانهم بحظ عظيم من الجمال تقل نظائرها في حسان الآخرين، وتكون آية المنتهى في جمال العالمين،

والمشهور ان الجمال مختلف في أذواق الناس ولكل جيل قياس في الحسن لا يأتي عليه قياس جيل آخر ولكن من أمعن بما يتناقله الكل من صفات الحسن يجد ثمة جهة جامعةً ومقياساً واحداً تتفق معه المقاييس كلها وذلك ان الحسن الذي لا خلاف فيه ليس هو بلون الاديم وانما هو باعتدال القامة، واستواء الهامة، وتناسب اجزاء الوجه ومقاطعه، وحلاوة المبسم، وملاحة العينين، ولطف الحاجبين، ورقة الشفتين، ولعلّ هذه المذكورات تكثر في العرب حتى ندر ان تجد غير موصوف او موصوفة بالحسن من مشهوريهم ومشهوراتهم. واذا اضيف الى ما ذكرناه بياض الاديم وتشربه بحمرة او صفرة كان ذلك فضلاً في الجمال، قد يبلغ به منتهى الكمال، ولم يكن هذا اللون قليلاً في العرب عامة وقوم خديجة خاصةً

والعرب لم يكثروا في كلامهم من شيء بمقدار ما أكثروا من وصف الجمال وقد رأيناهم يستحسنون هذين اللونين كثيراً: البياض المشرب بحمرة او البياض الضارب الى صفرة. قال ذو الرمة احد شعرائهم:

بيضاء صفراء قد تنازعها لونان من فضة ومن ذهب

وهذا اللون هو لون اللؤلؤ وقد جاء في القرآن المجيد تشبيه حسان

البنة باللؤلؤ المكنون ولا يختلف أحد الى عهدنا هذا في أنَّ هذا اللون هو الذي تكون صاحبته أقرب الى الكمال في الجمال اذا أخذت بحظ من تناسب بقية الاوضاع ، فانه عند ما ينطبع فيه الاحمرار لسبب من الاسباب تكون حمرته ألطف من الحمرة الملازمة لبعض البيض وعن مثل هذا عبر عدي بن زيد أحد شعراء العرب بقوله :

حمرةٌ خلطَ صفرة في بياض ... مثلما حاك حائك ديباجا

ولكثرة البياض اللطيف في العرب شبهوه بالصبح واشتقوا من الصبح لونا فقالوا للابيض صبيح ، واشتقوا من الزهر لوناً فقالوا للأبيض المشرب بحمرة أزهر ، وتشبيههم بورد الخدود دليل على كثرة هذا اللون فان هذه الحمرة لا تنطبع الا على أديم أبيض ورأيناهم يشبهون الاعناق كثيراً بأباريق الفضة كما قالت قريبة بنت حرب أخت أبي سفيان في أعمامها وأخوالها

وليس بعجيب بعد أن كان الجمال الرائع من جملة خصائص العرب أن نجدهم مغرمي القلوب بجمالي تجلياته ، منصرفي الوجوه الى مشارق أنواره ، ثم لا بدع بعد ذلك اذا وجدنا حب الجمال قد لطَّف أذواقهم ، وعودهم على الاستحسان ، ونقلهم من حال الى حال ، الى أن تهيأوا لقبول الدعوة التي رقت بهم من هذا الجمال الى أعلى ، ومن هذا الغرام الى ما هو أولى ، نقلتهم الى تصور الجمال الالهي مصدر كل جمال ، ورقت بهم الى عشق الكمال المعنوي الذي هو فوق كل كمال ، فلم يصعب على أولئك

الذين شغفهم الجمال المحسوس، ان يفهموا الجمال المعقول، وان يزدادوا نصيباً منه مع نصيبهم من ذلك ولم يعز عليهم ان ينتقلوا الى العالم الجديد الذي دعوا اليه لانه تبدى لهم أجمل مما كانوا عليه

ونحن اذ نرى للعرب الحظ الاوفر من الشغف بالحسن والاستحسان يزيد قدرهم في اعتقادنا ونرى من غير تردد انهم كانوا لذلك العهد من أرقى الاجيال الراقية على بعدهم عن الزخرف، وعدم تعلقهم بكل أسباب الحضارة، ولعلنا اذا بحثنا عن المؤثر الاعظم في وفرة جمال هذا الجيل نجد ذلك لانهم خصوا بأخذ المعتدل من المعاش، والمعتدل في المعتدل من الاقاليم، وجنب اليهم المعتدل من المزن والاعمال، وأضافوا الى ذلك أنهم لا يتزوجون من غير رؤية غالباً وللانتخاب دخل كبير في تحسين الجنس وتجويد النسل.

وان بدا لأحدهم أن يتزوج بمن سمع بجمالها ساعاً تجده لا يقتصر في البحث والتدقيق بواسطة سن بثق بحسن ذوقهن، وجودة اعينهن، والحكاية الآتية تدلنا على مقدار حرصهم على اختيار الجميل وعلى مبلغ هذا الشعب من الجمال:

أراد ملك من ملوكهم (هو عمرو بن حجر ملك كندة جد امرئ القيس) أن يتزوج ابنة عوف بن محلم (الذي يقال فيه لاحر بوادي عوف لا فراط عزه) وكانت ذات جمال فوجه اليها امرأة يقال لها عصام تنظر اليها وتتحن ما بلغه عنها فلما رجعت قال لها الملك « ما ورا لك يا عصام » قالت: رأيت جبهة كالمرآة المصقولة يزينها شعر حالك، ان أرسلته غلبك السلاسل، وان شمطته غلبته عناقيد كرم جلاه الوابل، ومع ذلك حاجبان

كأنهما خطا بقلم ، أو سودا بفحم ، قد قوسا على مثل عين الجبرة ، التي لم يعجلها قائص ولم ينعرها قصورة ، بينهما أنف كحد السيف المصقول لم يخنس به قصر ولم يعض به طول ، حفت به وجنتان كالأرجوان ، في بياض محض كالجمان ، شق فيه فم كالخاتم ، أو كالبدء المبتسم ، فيه ثنايا غر ، ذوات أشر ، يتقلب فيه لسان ذو فصاحة وبيان ، يزين به عقل وافر ، وجواب حاضر ، يلتقي بينهما شفتان حمراوان كالورد ، يحلبان ريقا كالشهد ، تحت ذلك عنق كأبريق الفضة ، ركب في صدرها مثل دمية ، يتصل به عضدان ممتلئان لحما ، ومكتنزان شحما ، وذراعان ليس فيهما عظم يبس ، ولا عرق يعبس ، ركبت فيهما كفان رقيق قصبهما ، تفقد ان شئت منهما الانامل ، تنأى في ذلك الصدر ثديان كالرمانتين يحرقان عليها ثيابها — الى أن قالت حين انتهت الى وصف ساقيها — وشيتا بشعر أسود ، كأنه حلق الزمرد ، يحمل ذلك قدمان ، كعنبر اللسان ، — فتبارك الله مع صغرهما ، كيف يطيقان حمل ما فوقهما ، »

ووصفهم الحسن والجمال في الشعر مشهور كقول بعضهم من قصيدة

ويزين فوديها اذا حسرت　　صافي الغدائر فاحم جعد
كالوجه مثل الصبح مبيض　　والفرع مثل الليل مسود
وجبينها سهل وحاجبها　　شكل المخط أزج معتمد
وكأنها وسنى اذا نظرت　　أو مدنف لما يفق بعد

فهذا مثال من أمثلة الجمال العربي الذي كان لرهط خديجة حظ منه كبير ولم يكن حظها هي منه قليلا

الفصل الثامن

ثراؤها والثناء عند قومها

وكان للسيدة « خديجة » مع ما آتاها الله من الجمال وفضائل النفس حظ من الثراء ايضا وثراؤها في حياة أبيها وكانت تاجرة ولعل الباها نخلها رأس المال بادي بدء

لم يكن اشتغال سيدتنا هذه بالتجارة شيئاً يعجب منه في قومها فانهم كادوا يكونون كلهم تجاراً . تقضي بذلك طبيعة مقامهم في ذلك البلد ، وشريعة تربيتهم على طلاب المجد واتساع السؤدد ، ومنافسة الاقرب والأبعد ، ولولا شغفهم بهذا لما سمعنا بصدى همتهم في التجارة من بين إخوانهم الآخرين . ولولاه لاستطابوا من العيش ما استطابه ذلك الاعرابي الذي سئل عن طعامهم في البادية فقال لسائله : « نخ نخ عيشنا عيش تململ جاذبه »[1] وطعامنا أطيب طعام واهنؤه وأمرؤه ، القت[2] والهبيد[3] والصليب[4] والعلهز[5] والذآنين[6] والعراجين[7] والضباب[8] واليرابيع[9] والقنافذ[10] وربما أكلنا والله القد[11] واشتوينا الجلد ،

---

(١) تململ من الملل وهو الشرب بعد الشرب «٢» القت الفصفصة وهي الرطبة من علف الدواب «٣» الهبيد الحنظل يكسر ويستخرج حبه وينقع لتذهب مرارته ويتخذ منه طبيخ يؤكل عند الضرورة «٤» الصليب الودك يستخرجونه من العظام بعد أخذ اللحم منها «٥» العلهز قراد كبير ونبات ينبت في بلاد بني سليم وطعام يتخذ في المجاعة من الوبر والدم (٦) الذآنين جمع ذؤنون نبت طويل ضعيف له رأس مدور (٧) العراجين جمع عرجون العود من النخل (٨ — ٩ — ١٠) الضباب اليرابيع والقنافذ حيوانات معروفة «١١» القد جلد السخلة

فما نعلم أحداً أخصب مناعيشاً، ولا أرخى بالاً، ولا أعز حالاً، أو ما سمعت قول شاعر وكان والله بصيراً برقيق العيش ولذيذه :

إذا ما أصبنا كل يوم مذيقة (١) وخمس تميرات صغار حشوانز

فنحن ملوك الناس خصباً ونعمة ونحن أسود الناس عند الهزاهز

وكم متن عيشنا لا يناله ولو ناله أضحى به حق فائز

فالحمد لله على ما بسط من حسن الدعة، ورزق من السعة، وإياه نسأل تمام النعمة »

هذا ما استطابه الاعرابي وحمد الله عليه هذا الحمد. وما الاعراب الا بشر قد يستطيب غيرهم من البشر ما يستطيبون اذا خلصوا الى مثل معيشتهم ومارسوها لكن من الناس من لا يطلبون في الحقيقة ما يقيم مادة البدن فقط كما تطلبه سائر الحيوانات بل يتسابقون الى ما به الغبطة من المقتنيات والذخائر، ويتبارون في ما به التمايز من المستحسنات والبدائع، ومثل هؤلاء يزيد الله الانسان بسطةً من المعارف، وقوةً في المدارك

وقريش كما عرف القارىء كانوا ممن أعدهم الله لعمل عظيم في الارض ولا يتم ذلك بحسب سنته سبحانه ما لم يكن في سابق تربيتهم وطرق حياتهم ما يلائم الطريق الذي سيستأنفونه وما أمامهم الا المغامرة في السيادة على شعوب العالم بقدر ما يستطيعون فلم يكن لائقاً بمن هم عتيدون لمثل ذلك ان يقيموا في بلدهم ولا يعرفوا العالم، ولا تميل نفوسهم الى خيرات السماء والارض الفائضة في ملك الله الواسع، بل اللائق

(١) المذيقة تصغير مذقة وهي شربة من اللبن الممزوج بماء كثير

هؤلاء أن يكون كل واحد منهم أنفق حاله بقول ذاك الشاعر من أبناء ملوك العرب (امرء القيس)

فلو أنّ ما أسعى لأدنى معيشة كفاني ولم أطلب قليل من المال
ولكنّما أسعى لمجد مؤثّل وقد يدرك المجد المؤثّل امثالي

وحقا كانت حال القرشيين ناطقةً بمثل هذا الكلام ، وكلّ منهم له في المجد أرب ، فلا بدع اذا انصرفت أنفسهم الى تحصيل المال فانه أعظم أدوات هذا المطلوب وقد نجح فيه منهم كثيرون ونعوا بالغنى قومهم عند الشدائد منهم عبدالله بن جدعان التيمي بحفنته التي كان يقدمها للفقراء والمساكين من زوار مكة وأهلها وقد أمد قومه بالسلاح في حرب حاربوها وسلّح مئة مكيّ من غير قومه ممن حارب معهم وفي هذه الحرب قتل أحد اخوة السيدة « خديجة » العوام ابو الزبير [1] ومنهم أمية بن خلف ابن وهب وابنه صفوان الذي أثر عن النبي (ص) انه قال فيه « ان صفوان بن أمية قنطر في الجاهلية وقنطر أبوه » أي بلغ ماله القناطير [2] وكثيرون غير هؤلاء .

فيالله ما أشبه قريشا الضاربين في أغوار رمال العرب وأنجادها النقل المتاع من هذه البرية واليها على مراكبهم سفن البر ، بالفينيقيين الضاربين

« ١ » تحاربت في هذه الحرب قريش وهوازن وكان عمر النبي (ص) فيها اربعة عشر عاماً وحضرها مع اعمامه بجيء لهم النبل . وعبدالله بن جدعان تيمي شهير وعمّ كبير وهو من نخذ بني جمح

« ٢ » أمية من نخذ بني جمح أيضاً وقد قتل في وقعة بدر وكان مع أعداء النبي « ص » اما ابنه صفوان فاسلم بعد فتح مكة وكان من المؤلفة قلوبهم

في أكباد تلك المياه وأطرافها تنقل البضائع من هذا القطر الى ذاك على مراكبهم فلا تنقص اليمن ، فلئن كانت لأبناء تلك السواحل رحلتا شتاء وصيف بين زئير الامواج ، ومعارك الامواء ، فلأبناء هذه البراري أيضا رحلتا شتاء وصيف بين عواء السباع ، ومعالجة الرمال

لعمر الحق قد أدرك القوم ان الخير كل الخير لانفسهم ولبلدتهم انما هو في أن يحققوا التجارة لانها في الامم أقوى الاسباب المقربة من البدائع ، المبعدة عن الحياة الوحشية ، فقاموا بهذا المرغوب غير كسالى فكان لذلك ربحهم عظيماً من المال ومن ملكة الاختلاط بالاقوام في ذلك العصر السحيق والمكان البعيد . وكان بلدهم على هذا البعد عن العمران المتصل وسطاً صالحاً للتجارة في تلك البرية بواسطة الحج الذي كانت تحجه العرب الى البيت المعظم الذي فيها وجدير ببلدة يحج اليها العرب ذلك الحج ان تكون للامن داراً ، وانما تنبت شجرة التجارة في رياض الامن .

وكانوا يقيمون من حولها أسواقاً موقتة في العام قبيل أيام الحج ويفدون اليها ليبيعوا ويشتروا . أشهرها سوق عكاظ كانت تقوم في أول يوم من ذي القعدة « وعكاظ » بين مكة والطائف ومن أسواقهم هذه « ذو المجاز » وهو عند عرفات و « مجنة » وهي موضع بأسفل مكة و « بدر » وهي بين مكة والمدينة

ولقد كان لسوق عكاظ من خطير الشان ان النعمان بن المنذر ملك الحيرة على اتصاله ببلاد الحضارة وبعده عن مكة كان يبعث كل عام الى سوق عكاظ جمالاً محملة بزّاً وطيوباً لتباع في هذه السوق ويشترى له

بثمنها من أدم الطائف [1] ما يحتاج اليه ولم يكن يرسلها في هذا الطريق البعيد التي تمر فيه على قبائل شتى حتى يجيرها له شريف من شرفاء العرب

وهذا يدلنا على ان تلك البلاد لم تكن تأتي بالحاصلات من غيرها فقط بواسطة التجارة بل كانت تخرج الى غيرها حاصلاتها أيضاً ومع ان الشام مشهورة بأعنابها وفواكهها كان تجار مكة يأخذون اليها من زبيب الطائف ذلك الزبيب الذي أدهش حسنه وكثرته سليمان بن عبد الملك لما رأى بيادره فقال: لله در قيس في أي عش أودع فراخه: يريد بقيس ثقيفاً فكذلك كان اسمه وحسبك ان النعمان بن المنذر كان يرسل يأخذ من أدمها

فتجار مكة لم يكونوا يذهبون فارغي الاحمال الى الشام والى غيرها أحياناً بل كانوا يذهبون ببضاعة حجازيه مما تخرج تلك الارض من نبات ومعدن ويرجعون ببضاعة شامية او غيرها مما تخرج الارض وتصنع الايدي. وآخرون مقيمون غير ظاعنين ليقيموا السوق الدائمة في تلك البلدة «أم القرى»

ولا يستريح القارئ حتى يعلم ماذا كانت تخرج تلك الديار الى غيرها من الاشياء فانه كلما تصورها غير زراعية وغير صناعية يضيق ذهنه عن معرفة ما يصلح ان يخرج منها وله العذر في ذلك اما نحن فنذهب حيرته ببيان وجيز لا يسعنا اكثر منه لئلا ينقطع الحديث فنقول ان تلك البلاد في نفسها رأس مال طبيعي كسائر البلاد. ذلك بما تشتمل عليه من معادن ونباتات برية يصلح بعضها للصبغ وبعضها للدبغ وبعضها للطب وبعضها

[1] الادم بضمتين وبفتحتين الجلود المدبوغة والواحد أديم

للطيوب وبعضها للتنظيف فاذا أضفت الى ذلك ما كانوا يجففونه من ألبان الحيوانات وما يستخرجونه منها من الزبد ومن أصوافها وأوبارها وجلودها وما كانوا يجففون من التمر والزبيب وغيرهما تجد بضاعة غير يسيرة تحمل مثلها الى أطراف بلاد الشام مما هو الى الحجاز أقرب بل ربما راج بعضه في العواصم

نحن اليوم لا نتصور مجتمعاً حضرياً الا بأن يكون فيه أمير مسيطر وجند له حافظون، وزراع وصناع وتجار للمعاش ضامنون، وقد رأى القارىء ان مجتمع «خديجة» قام بغير مسيطر وجنده فعسى ان لا يقيس على استغنائه عن سيطرة الامير استغناءه عن الزراعة والصناعة والتجارة كلا فان هذه الثلاث لا قوام لقوم بدونها. ونحن اذا ذكرنا ما كان من النصيب لقوم «خديجة» منها لا نقصد به عد مفاخر لهم الا من جهة انهم تغلبوا بمدارك عقولهم وهممهم على كل ما كان يحول بينهم وبين المفاخرة في إدراك شأو الأمم والابتعاد عن البداوة من بعد ان أوشك جوار البادية ان يجذبهم اليها كما جذب إخوانهم الآخرين

فهم تحضروا في ذلك البلد بين أهل البادية وفي منقطع عن العامرة وأعطوا الحضارة حقها على صعوبة الوفاء لها بهذا الحق. وتراهم مع هذا لم يخالفوا سنن العرب فيما يأتون منه ويتركون عنه فأقاموا ما احتاجوا إليه من الصناعة في بلدهم ولكن على أيدي عبيدهم لان العرب كانت تأنف من بعض الصناعة وكذلك أقاموا ما احتاجوا اليه من الزراعة على أيدي عبيدهم ولم تكن الزراعة كثيرة في بلدهم ولكن لم يكن خالياً

منها البتة فهنالك اودية يجود فيها الزرع والغراس وتجري فيها العيون . وما الطائف عنهم ببعيد وهو أبو الزراعة

اما التجارة فلم تكن العرب تأنف منها فلذلك باشرها القوم بأنفسهم كما باشر بعضهم بعض الصناعات التي ماكانوا يأنفون منها . فمنهم من كان يبيع الثياب ، ومنهم من كان يبيع الادهان ، ومنهم من يبيع اللحم ، ومنهم من يبيع الاداة والماعون والسلاح ، ومنهم من يبيع الرقيق خاصة . وبالجملة كان فيهم باعة لكل الاشياء التي تدور عليها حاجة الانسان المتحضر من صنوف الاكسية المعتادة ، وضروب الاطعمة والاشربة المعهودة ، وصنوف الماعون والاداة اللازمة ، والعقاقير المعروفة ، والحيوانات المتداولة ، والأسلحة الفاشية . ولم تكن سوقهم تلك خالية من المماسرة ويقال ان عمر بن الخطاب الخليفة الثاني الشهير كان بزازاً ويقال انه كان سماراً كما ان أبا بكر الخليفة الاول كان بزازاً (رضي الله عنهما)

ومهما كان ذلك المجتمع أقل تشبثاً بالزخرف وأبعد عن التسابق الى المتاع الزائد عن الحاجة نرى ان حاجاته التي تحتاج الى عمل التجار لم تكن قليلة ونرى أنها وحدها كافية لان يكسب بعضهم بواسطتها كثيراً من المال فالتجارة ولا شك هي السبب الاول في ثراء قريش وكثرة المثرين منهم لانا لم نعلم الى ذلك العهد وجها من وجوه المرابح وغناء المال أعظم منها

وأصناف الاموال التي كان الثراء بها عندهم هي الذهب والفضة ، والابل ، والرقيق ، والاراضي للزرع والغراس ، والاراضي للمعدن ، . أما الذهب والفضة فهما الواسطة العظمى في تبادل العروض والاعيان

ومن مطالعة أخبار القوم يظهر انه كان لديهم منها شيء كثير . من شواهد ذلك قول النبي (ص) « ان صفوان بن أمية قنطر في الجاهلية وقنطر أبوه » ومن شواهد ذلك انه بعد ان ظهر الاسلام وانقسموا قسمين أحدهما مع النبي (ص) في دار هجرته (المدينة) والآخر عدوّ له في وطنه (مكة) أدّت تصاريف العداوة الى اشتعال حرب بين الفريقين في المحل المسمى ببدر بين مكة والمدينة فكان الظفر لاصحاب النبي (ص) ووقع في أيديهم من عشيرتهم سبعون أسيراً افتدوا أنفسهم ووزنوا في فدية الواحد أربعة آلاف درهم فتكون الجملة نحو مائتين وثمانين ألف درهم أي نحو عشرين قنطاراً مصريا من الفضة ولم يحدث في ذلك البلد الصغير أقل ضيق من هذا المقدار الذي وزن أهل كل أسير منه ما عليه . وما هو بالمقدار الكبير ولكنه يدل بالجملة على وفرة هذه الدراهم وتيسرها عند القوم. ومنها ما ورد من انهم انفقوا على حرب النبي في أُحُد ربح العير التي جاء بها ابو سفيان من الشام وقدره خمسون الف دينار

وكانت النقود التي يتداولونها من ضرب الروم غالباً وبعضها كسروي ولكن لم يكونوا يتداولونها الا بالوزن ولعل ذلك لعدم اتقان ضربها على وتيرة واحدة وقد ظلّت النقود الأجنبية الى أيام عبد الملك بن مروان فهو الذي أحدث النقود المكتوب عليها بالعربية

وأما الابل فهي أوفر أصناف أموالهم والابل مال كثير البركة لصاحبه فالقليل منها فيه الغِنى والغَناء ، والنعمة والهناء ، من درّها الغذاء ، ومن أوبارها الكساء ، ومن جلودها الماعون والحذاء ، ومن بعرها الوقود

للطبخ وكشف الظلماء ، وظهورها مراكب للظعن والحمل والنجاء ، [١] ويطونها أعظم بها واسطة للنماء ، فبيشك أيها المطالع ، في أي صنف من أصناف الاموال الحضرية يجد أحد امثل هذه البركة ، التي لا تحتاج الى شيء عظيم من الحركة ؟

وأما الرقيق فقد كان في ذلك العهد يعد مالا في جميع جهات الارض وكان هؤلاء القوم من أغنى الناس في الرقيق واذا صرفنا النظر عن استهجان هذه العادة نرى ان لا شيء أنفع من عمل الآلة المتحركة بنفسها ، النامية بطبيعتها ، المدركة بخلقتها ،

وأما الاراضي للزرع والغرس فكان فيهم أفراد يملكون منها كثيراً ومن متمولي قريش من كان يملك اراضي في الطائف كعتبة وشيبة ابني ربيعة (من فخذ بني عبد شمس) وغيرهما

وكان نظر القوم الى الزرع والضرع أعظم من نظرهم الى الذهب والفضة فقد سئل بعضهم عن الذهب والفضة فقال « حجران يصطكان إن أقبلت عليهما نقداهما وان تركتهما لم يزيداه ان أفضل المال برّة سمراء ، في ربة غبراء ، او عين خرّارة ، في أرض خوّارة » أشار بهذه الكلمات القليلة الى ان الموجب لنماء الثروة هو العمل في استخراج الخيرات الطبيعية من الارض التي هي اول رأس مال اما الذهب والفضة المتداولان فواسطة لوزن حركات دولاب الاعمال فقط . وهذا هو الأس الصحيح في علم ثروة الامم

واما أراضي المعدن فالظاهر أن بعضها كان مشاعا وبعضها كان مملوكا اما كون بعضها مشاعاً فمأخوذ من عادة العرب في جاهليتهم من انهم لم

« ١ » النجاء المهرب

يكونوا خاضعين لمثل سنن البلاد التي فيها ملوك . والمعادن انما يجعل لها حمى وحرما الملوك الذين يعدونها من جملة الاموال العمومية التي هي حق للخزانة العمومية خزانة المملكة . واما كون بعضها كان مملوكاً فتستفيده مما قرأناه عن ملك بعضهم لبعضها كالحجاج بن علاط السلمي (١) الذي كان يملك معادن بني سليم . وكأنهم اشيوع ملك بعض الناس بعض المعادن كان من الناس من يطلب من النبي بعد الفتوح ان يقطعه شيئاً منها فقد طلب بلال بن الحارث ان يقطعه معادن القبلية (منسوبة الى قبل بفتحتين) وهي ناحية من ساحل البحر بينها وبين المدينة خمسة ايام فأقطعه اياها وأقطعه جبل قدس للزرع (٢)

هذه هي أصناف الاموال التي كان بها ثراء هؤلاء القوم يضاف اليها العروض والامتعة التي كانت تتداول في التجارة والى مثلها يؤول اليوم كل ثراء فان ملاك الارض والمعادن لا يزال ايضا ينبوعاً ثرورا للثروة ، واستخدام القملة بأجر بخس نوع من الاستعباد والاسترقاق اعني ان فائدته المادية كفائدته ، والنقود لا تزال كثرتها وقلتها ايضا معيارا

« ١ » الحجاج بن علاط ليس بقرشي بل هو من بني سليم ولكنه كان متزوجا من قريش « من بني عبد الدار رهط خديجة » وكانت أمواله تستثمر في مكة وكان مكثراً من المال . أسلم يوم فتح خيبر ثم جاء الى النبي « ص » فقال له أن لي ذهباً عند امرأتي « في مكة » وان تعلم هي وأهلها باسلامي فلا مال لي فائذن لي لأسرع السير واخبر أخباراً اذا قدمت أدرأ بها عن مالي ونفسي فأذن له النبي « ص » وقدم مكة وأخذ أمواله بحيلة

« ٢ » جبل قدس معروف في جوار المدينة

عظيما لثروة الامم، وعلى مقدار ما تقدم كله يكون محور التداول للعروض والامتعة والاثاث والرياش .

وقد كان من لا يستطيع ان يباشر التجارة بنفسه او السفر من أجلها يعطي من ماله الى آخر على ان يتجر به ويكون الربح بينهما أو يعطيه بالربا وكان معهوداً فيهم او يستأجر آخر ليقوم له بتجارته والامانة هي الغالبة فلم يكن بأس على المال بتسليمه الى من يتجر به بالمؤاجرة او المضاربة فلذلك لم تصعب التجارة على السيدة «خديجة» التي كان لها ما للنساء قومها من الاستقلال في أموالهن ولم يكن لابيها ولا اخوتها سلطان في ذلك المال الذي كانت تبعث به الى التجارة مع ذوي الامانة ذاهبا وآيبا

وفي إيثار هذه السيدة إرسال أموالها في التجارة على الاتجار بالنقود في مكة كما يفعل المرابون دلالة على بعد نظرها، وعلو همتها، وعظيم عطفها وحنانها على وطنها فان الأوطان تسمو باقدام أرباب اموالها على نشر اسمها في العالم بالبيع والشراء واظهار صنوف الثراء، ولا يكون لها مثل ذلك بشيوع المتاجرة بالنقود

الفصل التاسع

زواجها قبل النبي صلى الله عليه وسلم

تزوجت خديجة قبل النبي (صلى الله عليه وسلم) مرتين تزوجت أبا هالة النباش بن زرارة وتزوجت عتيق بن عابد المخزومي. وكان الزواج المرضي في الجاهلية كالزواج في الاسلام أي ان الرجل يخطب الى الرجل بنته او من له عليها ولاية ويقدم صداقها فيزوجه . واما ما يذكر من أنواع أنكحة الجاهلية الاخرى فهو من باب السفاح لا من باب الزواج المرضي ولم يكن السفاح والمخادنة من فعل الشرائف والكرائم، وانما يفعل اغلب ذلك الإماء والحقائر

وولدت هذه السيدة ولداً من ابي هالة وسمته «هنداً» على عادة العرب اذ كانوا يضمون للذكور احياناً اسماء الإناث فهند هذا هو ربيب النبي (ص) أخو فاطمة لامها عليهما السلام وقد عاش وأدرك الاسلام وأسلم. روى عنه ابن اخته الحسن بن علي حديث وصف النبي (ص) المشهور في الشمائل وكان هند وصافاً وحديثه هذا أبلغ ما وصف به النبي صلى الله عليه وسلم وقد قتل هند مع علي يوم الجمل

سيعجب القارئ من زيادة تعريفنا لابنها هذا ونحن لا نكتمه السبب وذلك اننا نحب ان لا ندع شيئا مما يتعلق بسيرة هذه السيدة مغفلاً ومهملاً ولا سيما بعد اذ رأينا أكثر الذين كتبوا في سيرتها لم يتعرضوا لذكر ولدها هذا فكاد يضيع ويخفى الأ على المنقبين في بطون الاسفار الواسعة وعذرهم

في ذلك انهم انما يتعرضون لسيرة هذه الفاضلة على الغالب منذ تشرفها بزواج النبي (ص)

وان لنا — والحق يقال — حقاً على هؤلاء الناس الذين يريدون أن يعرفونا بشخص ممن مضى فيمسكون أنفسنا بالشيء من أخباره ثم يقطعونه ويجذبوننا الى شيء آخر

على اني لا أنكر انه اذا سطعت الشمس لا يبقى لبصيص السراج مكان. فمن ذا الذي يعلم ان هذه السيدة اتصلت بشمس الهدى « محمد » صلى الله عليه وسلم وولدت منه « فاطمة » الزهراء امّ الحسنين ثم يرجع باحثاً عن ابنها ذاك من زوجها الاول ابي هالة ؟

لعمرك اذا وصلت بي بيرتها الى هذا المقام تضاءلت امام نظرك كل ما تسمع عن أيامها الماضية واستشرفت نفسك الى الاطلاع على هذا الشأن الجديد الذي سيكون لهذه السيدة مع هذا الزوج الكريم الذي رنّ الكون كله باسمه الشريف

فمن هنا بدء الحياة العليا لهذه السيدة ، ومن هنا بدء خلود اسمها في نوح الوجود ، وبدء إشراق مواهبها في سماء السعود ، أمامها الآن الشمس بلا حاجز ، فليستمد جوهرها القابل ، وليفض نوراً وسناء ، وليتبارك كمالاً وبهاء

الخاتمة

﴿ في ذكر آيات علمية من القرآن ﴾

قلنا إن القرآن الشريف لم يأت لتعليم الناس شيئاً من العلوم الطبيعية ولكن مع ذلك لم تخل آياته من التعبيرات الدقيقة العلمية ولا من الاشارة إلى حقائق كثيرة من المسائل الطبيعية مما يدل على أنه تنزيل العليم الحكيم فان هذه المسائل ما كانت معروفة لأحد في زمنه ولا يمكن لعربي أمي في ذلك الوقت أن يقف عليها لولا وحي الله . ولنذكر هنا شيئاً من هذه الآيات المشتملة على التعبيرات الدقيقة والمسائل العلمية الطبيعية

(١) قال الله تعالى (٧ : ٥٧ وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون) وقال أيضاً (٢٤ : ٤٣ ألم تر أن الله يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار ٤٤ يقلب الله الليل والنهار إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار) وفيه إشارة إلى أن البرق يتولد من السحاب وقوله (من جبال فيها) هو تشبيه لقطع الحساب العظيمة بالجبال لما بينهما من التشابه في الشكل وعدم الانتظام وعظم الحجم كما شبه أمواج الماء بالجبال في قوله (وهي تجري بهم في موج كالجبال)

(٢) قال تعالى (٢٨ : ٨٨ وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء إنه خبير بما تفعلون) وهو صريح في حركة الأرض . وليس ذلك في شأن القيامة فان قوله (تحسبها جامدة) لا يناسب مقام التهويل والتخويف وقوله (صنع الله الذي أتقن كل شيء) لا يناسب مقام الاهلاك والابادة . وقال أيضاً (٩١ : ١ والشمس وضحاها ٢ والقمر إذا تلاها ٣ والنهار إذا جلاها ٤ والليل إذا يغشاها) وهو أيضاً يشير إلى حركة الأرض

(٢) راجع ص ٢٦٠ م ٦ وص ١٠٤ وما بعدها م ٨ وص ٩٢٠ م ٩

(٣) قال تعالى (٢١ : ٣٠ أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون) وهو صريح في أن الأرض والكواكب كانت شيئاً واحداً ثم انفصل بعضها عن بعض وهو كقول العلماء الطبيعيين إنها كلها أجزاء انفصلت عن الشمس وكانت ملتهبة فصارت تبرد شيئاً فشيئاً وإلى ذلك يشير القرآن بقوله أيضاً (٤١ : ١١ ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين) أي وهي ذات دخان لالتهاب أجزائها ولكون أكثرها في الحالة الغازية

(٤) قال الله تعالى (١٣ : ٣ ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين) وهو صريح في أن الثمرات جميعاً فيها الذكر والأنثى وهو أمر لم يعرف إلا من عهد قريب . والقرآن نفسه هو الذي فسر الزوجين بذلك في آية أخرى بقوله (وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى)

(٥) قال الله تعالى (١٥ : ٢٢ وأرسلنا الرياح لواقح) أي ملقحات للأشجار

(٦) قال الله تعالى (١٧ : ١٢ فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب) وهو يشير إلى أن القمر (وهو آية الليل) مظلم لذاته

(٧) قال الله تعالى (٣٦ : ٣٧ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فاذا هم مظلمون ٣٨ والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ٣٩ والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ٤٠ لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون)

(٨) قال الله تعالى (٣٩ : ٢١ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً فسلكه ينابيع في الأرض) الآية

فقل لي بأبيك أي عربي أمي يعرف هذه المسائل أو تخطر له على بال وخصوصاً في تلك الأزمان التي كان فيها أعلم العلماء في أرقى البلاد يجهل بعض هذه الحقائق المذكورة في القرآن كدوران الأرض وكون جميع السيارات منفصلة عن أصل

---

(٣) راجع ص ٣٣٣ م ٦ و ٢٨٩ م ٧ (٨) راجع ص ٢٩٠ م ٧

واحد وأنها كانت دخانا . وأن الثمرات جميعاً فيها الذكر والأنثى وأن الرياح هي التي تلقحها إلى غير ذلك من دقائق المسائل العلمية الطبيعية . وكلها دلائل على أن هذا الكتاب ليس من صنع البشر بل هو تنزيل من الله العليم الحكيم

الدكتور محمد توفيق صدقي

باب المناظرة والمراسلة

٤

﴿ بحث العمل بأحاديث الآحاد والحديث المتواتر ﴾

ولنعد فنقول التواتر هو وان كان من الطرق المفيدة للعلم اذا وجد الا انا لا نحصر افادة العلم بالأخبار فيه كما انا لا نلزم به كل أحد قبل ان يعرف انه متواتر اذا لم يقصر في الطلب او كان معذورا لبعده عن أهله

قال حضرة الدكتور لم يتواتر من اقواله (ص) الا القليل الذي لا شيء فيه من احكام الدين

اقول ما ذكره غير مسلم والتواتر هو ما نقله جمع عن جمع يمتد تواطؤهم على الكذب أي عن محسوس وقد اختلفوا اختلافاً كثيراً في تعيين هذا الجمع . وبناء على تعيين الجمع فيما نظن قال بعضهم بندرة وعزة المتواتر في الاحاديث النبوية، وهذا اولى ما يقال في الاعتذار عن ابن الصلاح في قوله بذلك

قال السيوطي نقلا عن شيخ الاسلام ان قول ابن الصلاح نشأ عن قلة الاطلاع على كثرة الطرق واحوال الرجال وصفاتهم المقتضية لابعاد العادة ان يتواطؤا على الكذب او يجعل منهم اتفاقاً — قال ومن احسن مايقرر به كون المتواتر موجوداً وجودَ كثرة في الاحاديث ان الكتب المشهورة (أي المتواترة عن مؤلفيها) بايدي الناس شرقاً وغرباً المقطوع عندهم بصحة نسبتها الى مؤلفيها اذا اجتمعت (اي او اجتمع بعضها كما قال ذلك جمهور اهل الحديث) على حديث وتعددت طرقه تعدداً

تحيل العادة تواطؤهم على الكذب افاد العلم اليقيني بصحته الى قائله. قال ومثل ذلك في الكتب المشهورة كثير. اهـ

واقول أيضاً ان من تجرد عن التعصب والتقليد لا تخفى عليه الحقيقة المنشودة في هذا الباب. وبما قدمناه وما يأتي يظهر للمنصف مكانة الخبر الذي ينقله آحاد ثقات قد عرفوا بقوة الحفظ والذكاء والعدالة والورع والتقوى وعرفوا ان الكذب على رسول الله (ص) ليس ككذب على احد وان من كذب عليه متعمداً يتبوأ مقعده من النار اعتقدوا ذلك وهم بالصفات التي عرفت ونحملوا من الرواية ما اعتقدوا وجوب العمل به ثم وجوب تأديته لغيرهم كالأمانة وقد علموا ما في الخيانة من الوعيد والترهيب عن كتم العلم

فاذا اتصل سند الخبر بمثل من ذكرناه فهو فيما نعتقد مفيد للعلم اي يعتمد ! يمنع العقل عن مثل من نعتاه الكذب عادة ورب رجل يعدل رجالا — فان قيل سلمنا ان من كان مثل هذا يبعد منه الكذب عادة الا انه لا يؤمن عليه النسيان قلت قد علم من عادة المحدثين كتابة ما سمعوه وعلى الاقل للمراجعة الى وقت التأدية وهم لا يعتمدون على المكتوبات الا ما كان موثوقا به ومحفوظاً بغاية الاحتياط ولا يقبلون المكتوبات التي لا يدرى حالها وان كان كاتبها ثقة — وهذا اكبر دليل على ان ما عندهم من الاخبار اصح ما وجد من الاخبار في العالم بعد كتاب الله — وانما كان تواتر القرآن مقدماً على كل خبر لأنه نُقِلَ بمثل هذه الاسانيد اليقينية متواترة —

على انا نستبعد عادة ان الراوي الذي ذكرنا صفاته يحدث بما نسيه اذ لو فعل ذلك لم يكن بالمرتبة التي ذكرناها لا سيما في احاديث الاحكام والاعمال لشدة حاجته وحاجة معاصريه الى العمل بها. على أنه اذا نسي ذلك لا يحدث به وان حدث فانه يذكر اللفظ بالشك. ويبعد كل البعد ان ينسى نسيانه لذلك وابعد من ذلك ان لا يوجد هذا الحديث عند غيره

على انه لو فرض وقوع ذلك وهو غاية الندور فلا نسلم ان ذلك يضر في الدين اذ قد اغتفر ذلك أي النسيان والخطاء فيما حاجة الناس اليه اكثر وفيما وجب فيه زيادة الاحتياط وهما فيه اشد ضرراً وفيما هو سبب للضرر بلا واسطة وذلك

في القضاء لان أحد الخصمين قد يكون ألحن بحجته من الآخر فلم يضر الحاكم ان يحكم بخلاف الواقع في هذه الحالة اذا لم يقصر فلأن يغتفر ذلك في الرواية اولى لكون الضرر منها ان وجد لا يكون هو السبب المباشر للضرر غالبا. فتبين بذلك ان ماعسى ان يطعن به في الرواية التي وصفناها مع كونه لا يضر في الدين هو بناء شاذ على شاذ على شاذ كل منها يبعد وقوعه عادة — بل هو اولى بالوثوق من خبر الجمع الفسقة غير الموثقين الذين يقال في خبرهم يمنع او يبعد العقل تواطؤهم على الكذب عادة. فبعد الكذب عمن ذكرناه اكثر من بعده عن جمع التواتر الذي ذكروه

وحيث كان الاصل في جميع العلوم سواء كانت تصورية او تصديقية هو ما ادركه الشخص بأحد مشاعره الظاهرة أو الباطنة أو ما دل العقل عليه أو الوحي السماوي وهذا الاخير لا يكون الا علماً حقاً دائماً وما تقدمه يتفاوت الناس فيه تفاوتاً لا يحصره حد فقد صح لدينا عن المتقدمين وشهدنا ورأينا مالا يحصى في زماننا انه قد تصحح الجماعات ما يعدونه علماً لديهم بتطبيقه على معلومات فرد واحد بل قد يتبين فساد معتقدهم في جانب معلومات الفرد الواحد — وذلك دليل واضح على ان الفرد الواحد الممتاز بالكمال في صفاته وعاداته يعادل بل يرجح بالافراد الكثيرين من بني نوعه

ونحن ايضاً نرى الشخص المنصف قد يتهم نفسه فيما سمعه بأذنه اذا خالفه فيه من يعتقد انه احفظ منه فمثل هذا المنصف اذا اتهم نفسه فيما سمعه بأذن نفسه وقدم على ذلك خبر الممتاز الذي ذكرناه قد يبعد كل البعد ان يقدم على خبر سمعه بنفسه خبر الكثيرين غير العدول — وهل يمكن ان يقال ما علمه الانسان وسمعه لا يسمى علماً لجواز زواله بالنسيان؟ فتبين بطلان الخبر أو العلم بعد اعتقاد ثبوته هو عندنا يضارع زوال العلم بالنسيان

وايضا احتمال النسيان في الخبر مع الذهول عنه كما انه لا يضر الخبر وهو علم في حقه مالم يتذكر انه نسيه فكذلك لا يضر الخبر بالفتح اذا كان الخبر بالكسر بالصفات التي ذكرناها

ان خبر الآحاد قد اتفق على اعتباره جميع البشر كما هو مشاهد واعتبرته

الكتب السماوية في شرائعها وانبياء الله ورسله في التبليغ عنه والله ورسوله امر الأمة أن يبلغوا عنهما جمعاً وفرادى وبعبارة أخرى كل فرد فرد من الأمة مأمور بالتبليغ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وكلم الله موسى بن عمران عليه السلام ترك بلد من امره الله باقتدارهم وخرج من بين اظهرهم الى مدين معتمدا على خبر الواحد . واثنى الله على من احتج بخبر الواحد كمؤمن آل فرعون الى غير ذلك مما لا يكفي لبسطه المجلدات.

كل ذلك معلوم بالضرورة ولا ينكره الا مكابر فكيف يصح قول حضرة الدكتور لا يجب العمل بخبر الآحاد مطلقا ومن ثم قال الامام احمد رحمه الله إن خبر الآحاد الصحيح يفيد العلم وبه قال داود الظاهري والكرابيسي والحاسبي وحكي هذا عن مالك بن أنس

فان قيل ان الجمهور قائلون بأن خبر الآحاد يفيد الظن . قلنا أولاً اذا كان غرض الباحث مقصوراً على طلب الحق وهو ضالته فلا محل لهذا الاعتراض من أصله على انه يحتمل ان يكون قولهم « خبر الآحاد يفيد الظن » قضية مهملة أي وهي في قوة الجزئية (١) وبهذا الاعتبار يكون بعض أخبار الآحاد قد يفيد العلم

وأيضاً المعروف من مذهب الجمهور ان المشهور والمستفيض لا يجري فيه الخلاف وذهبوا أيضاً الى ان خبر الآحاد يفيد العلم اذا تلقته الأمة بالقبول بحيث يكونون بين عامل به ومتأول له لأن التأويل فرع القبول وجعلوا من هذا القسم احاديث الصحيحين — بل أكثر احاديث ما صنف فيما يحتج به من الكتب التي صنفت في الصحاح والحسان لاخبار الحسان بتعدد الطرق — ولا يهولنك ما قد تسمع به من التفرقة بين رجال الصحيح ورجال الحسن فان شرائطهم في رجال الحديث الحسن ربما لا يبلغها من وسم بأعلا سمات الفضل والعدالة في زماننا هذا — يدلك على ذلك ما عرف عنهم من أقوالهم في الجرح حتى انهم قد يعدون احاديث من

(١) المنار : أي هي بعض بعض خبر الآحاد يفيد الظن . وفيه ان المتبادر من الاضافة العموم الذي هو بمعنى الكلية وكلامهم صريح في هذا

سمع في بيته الغناء موضوعة — فان قيل ان هذا افراط قد يؤدي الى ضياع كثير من السنن. قلنا لكنه يدل على أن ما في أيديهم مما وسموه بالصحة والحسن منقى ومبرأ من كل احتمال يؤدي الى عدم قبوله — على أنا لا نسلم انحصار وجود ذلك عند من تركوه بل يجوز وجود ذلك عند غيره من الثقات ان كان هو من السنة في نفس الأمر وان كان مكذوباً فلا حاجة لهم ولا لنا به

ان أحاديث الكتب المشهورة عن مؤلفيها فيما يحتج به من السنن النبوية قد عرفت الأمة بأسرها صحتها أو حسنها لتعدد الطرق وصارت مقبولة عند الكل وأكثرها قد جمعت ودونت في عهد التابعين أو تابعيهم أما مجرد الكتابة بلا ترتيب للعمل أو للحفظ فقد كان في زمن الصحابة (رض) كما ثبت ذلك من طرق عديدة

وعليه فما قرروا صحته فقد اتفقت الأمة على قبوله اذ كانوا بين عامل به ومتأول وهو يفيد العلم لان سكوتهم عن الطعن فيما هو كذا بل قبولهم له يدل على معرفة كل واحد من العاملين به أو المتأولين له بصحته وهم في كل طريق وطبقة عدد كثير لا يجوز العقل تواطأهم على الكذب عادة.

وأيضاً يدل ذلك على ان هناك طرقا معضدة كثيرة ألجأتهم الى عدم الرد ولهذا نرى من لم يلتزم ذلك بالعمل عدل الى التأويل — وان ما هذه حاله لا يبعد ان نقول انه اعلا من بعض أنواع المتواتر — وما ذكرناه معلوم إن عرف حال المحدثين واحتياطهم في رواية السنة —

الا تراهم قد عمدوا حتى الى جميع ما شاع على ألسنة العوام مما نسب إلى النبي (ص) ثم صرحوا بتزييف الزائف وما له أصل ردوه الى أصله فما بالك وما رأيك فيهم اذا وجدوا مالا يصح مكتوبا في كتب الهداية؟ اتراهم يسكتون عليه وقد عرف من عادتهم ان ملاقي اسناده ولو مجهول واحد لا يحتج به عندهم؟ ان أهل الحديث لا يعتبرون رواية من انحطت درجته عن مرتبة رجال الحسن لا عتقادهم ان كثرة الكذابين ونحوهم لا يزيدون الخبر الا وهنا —

لو كانوا يأخذون برواية كل من روى حتى الكذابين والفسقة والكفار كما هي عادة التواترية ليلغ رواة كل حديث من أحاديث الاحكام في كل طبقة إلى

حد الكثرة التي يعتبرها التواترية — فان كان أحد يشك في قولنا فليتتبع كتب الصحاح والحسان وكتب الأحاديث الضعيفة وكتب موضوعات الحديث وغيرها من كتب السير والمغازي والتواريخ المسندة والتفاسير وغيرها — انا لا أشك انه يجد أسانيد متعددة لكل حديث فاذا لم يتقيد بطريقة أهل الحديث في شرائط الرواية وجرى على طريقة التواترية فهو يجزم بان رجال هذه الأسانيد يتعمدون تواطؤهم على الكذب — لا سيما اذا لاحظ من عمل بكل حديث من العلماء من عهد النبي (ص) الى حين كتابتها في كتب الحديث —

يقول التواترية ان خبر الآحاد يفيد الظن وقد قدمنا فساده ويرتبون على ذلك كبرى قياس من الشكل الأول وهي فكل ظن أو كل عمل بالظن فهو مذموم بنص القرآن وقد عرفت فساد الصغرى (١) والحق ان بعض الآحاد يفيد العلم

وأيضاً نحن لا نسلم الكبرى كلية لأن القرآن انما ذم الخرص و بعض الظن لقوله تعالى « ان بعض الظن إثم » وأيضاً ما ذكره الله من الظن المذموم انما هو الظن في تأسيس الشرائع بلا اعتماد على بينة من الله في ذلك ومن تتبع آيات القرآن في ذلك وجده انما يذم هذا النوع من الظن أو ما هو في معناه كما قال تعالى قبل ذلك « هل عندكم من سلطان بهذا » وقوله « ما أنزل بها من سلطان » وقد يذمهم الله بمعارضتهم ما أنزل من الحق بهذا الظن الفاسد الذي لا يستند الى أصل صحيح كما يرد عليهم تعالى شأنه في قوله « ان الظن لا يغني من الحق شيئاً » وهذا لا يصدق على الاحاديث الصحاح ولو كانت آحادا ولا على من يعمل بها ولو كان يعتقد ان ذلك من الظن اذ لا يصدق ولا نسلم انها من الظن المذموم إذ هؤلاء لم يعارضوا بها المقطوع اليقيني غاية ما في الباب ان بعض أهل الحديث أو أكثرهم قد جوزوا نسخ القرآن بأحاديث الآحاد الصحاح وقد قدمنا ان جمهورهم يقول ان بعض الآحاد تفيد العلم ومن كان هذا قوله فلا إيراد عليه واما من يقول بان ذلك يفيد

---

(١) المنار : اي قولهم ان خبر الآحاد يفيد الظن . وهي المقدمة الاولى من مقدمتي القياس اي الدليل

الظن فكذلك لا ايراد عليه لانه يقول ان بناء الحكم ظنياً والحكم المتأخر عنه في الحديث الصحيح أقوى وأرجح فهو انما أجاز نسخ الظن الضعيف بالظن القوي .

ان من قال بأن جميع أخبار الآحاد تفيد الظن وان كل الظن مذموم عند الله وفي كتابه القرآن الكريم — لزمه ان القرآن متناقض متخالف وانه من عند غير الله لان الله أمر وأوجب الحكم بخبر الآحاد وسماه عدلا في قوله «واذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل — وكون الشيء هناك مذموما وهنا عدلا تناقض وخلف وهو في القرآن محال وما انتج المحال فهو مثله فلزم ان الذم لا يتناول خبر الآحاد حتى على التسليم بانه ظن فعلى كل تقدير خبر الآحاد الصحيح عدل واجب العمل به على كل من عرف انه صحيح والله أعلم

وايضا اطلاق الظن مقابلا للعلم انما هو اصطلاح حادث مخالف لاصطلاح القرآن وعادته في محاوراته لان الله جل وعلا قد اطلق على العلم اسم الظن في مواضع كثيرة من القرآن كما قال تعالى حكاية عن الجن — وانا ظننا ان لن نعجز الله . وقوله اني ظننت اني ملاق حسابيه — وظنوا انهم احيط بهم — وظنوا انهم قد كذبوا — فظنوا انهم مواقعوها — الى غير ذلك مما اطلق فيه لفظ الظن والمراد به العلم فكذلك حملة القرآن من العلماء لا يبعد ان يطلقوا على العلم لفظ الظن كلهم او بعضهم

ثم يقول منهم ان بعض الاحاديث الصحاح تفيد الظن يمكن ان يحمل قوله على ما ذكرنا على انا قد قدمنا انه لا تصدق على ذلك تلك الآيات الواردة في بعض الظن لعدم العلة الجامعة — وفوق ذلك نقول ان عملهم بالاحاديث الصحاح انما هو من باب الاختيار والعمل باحسن الامرين او الامور التي انحصر الحق فيها وما ذلك الا لمرجح علموه لا ظنوه كما قال تعالى « اتبعوا أحسن ما انزل اليكم — تتقبل منهم احسن ما عملوا — فيتبعون احسنه » الى غير ذلك فاذا تعارضت ادلة ولا سبيل للخروج عنها كلها لانحصار الحق فيها — والحالة ان الاتباع فرض لازم كما قال تعالى « قل ان كنتم تحبون الله ورسوله فاتبعوني يحببكم الله » فيجب على العالم ان يجتهد واذا رجح احدها فهو انما يرجح بمرجح علمه لا ظنه فلا يصح ان يقال ان هذا عمل بالظن حتى يقال انه مذموم

ثم نقول للتواترية ان كل ما الزمتم به متبعي حديث الآحاد الصحيح هو لازم لكم في تواتركم بمعناه عندكم وزيادة على ذلك تلزمكم شناعات وفظائع لا يلتزمها الا من نفض يديه من دين الاسلام بل من سائر الاديان ونحن نبرئ حضرة الدكتور عن التزام مايؤدي الى ذلك لما عرفنا من كتابته السابقة التي اعلن الرجوع عنها نعتقد انه انما يحب الحق واظهاره وانه عند تجليه له لا يتوانى عن قبوله بغاية السرور والبشاشة بل يظهر للملأ رجوعه وان ذلك لما يزيده عند كل منصف اجلالا

﴿ بحث التواتر ﴾

ماهو التواتر؟ — هو غير معروف عند السلف من المسلمين وانما يعبرون عما كثرت رواته او ماروته الجموع بالمشهور وهو عندهم كغيره لا بد من رواية الثقات له والا لم يكن مقبولا

اما من عرف عنه التواتر فقد اختلفت عباراتهم في تفسيره اي حده فمنهم من قال هو ماتقله جمع يحصل العلم برواياتهم ضرورة — ومنهم من قال خبر جمع عن محسوس يمتنع تواطؤهم على الكذب عادة من حيث كثرتهم — ثم اختلفوا هل يمكن تعيين جمع يكون اقل نصاب جمع التواتر فقال بعضهم اقله اربعة وقيل خمسة وقيل عشرة وقيل اثنا عشر وقيل عشرون وقيل اربعون وقيل سبعون وقيل ثلاثمائة و بضعة عشر وقيل أربع عشرة مائة وقيل جميع الامة وقيل بحيث لايحويهم بلد ولا يحصرهم عدد والمرجح عند التواتريين عدم تعيين عدد مخصوص وانما مداره عندهم على حصول العلم من حيث كثرة العدد تارة ومن حيث القرائن اخرى

اقول من احاط علما بما ذكرناه من اختلافهم في هذا التواتر وفي شرائطه تحقق ان هذا شيء ليس من عند الله اذ لايمكن القطع به ولا يمكن طرده ولا تطبيقه على كل مافي الاعيان من الوقائع طردا على وتيرة واحدة بحيث يتفق عليه كافة الناس ويكون قاعدة يصح المرجع اليه لفصل النزاع —

يوضح ذلك انه يمكن على معتمد التواترية وقول جمهورهم ان يكون خبر اهل البلدة العظيمة متواترا كباريس مثلا واذا كان خبر الثلاثة والاربعة او الخمسة يصح

ان يكون متواترا بمعنى انه يمتنع تواطؤهم على الكذب عادة والامتناع هذا يكون تارة لمجرد الكثرة اي بلا اعتبار قيد من القيود المعتبرة في الرواة عند اهل الرواية كالبلوغ وكمال العقل والاسلام والعدالة الى غير ذلك . واذا كان الامر كذلك فاذا اخبر خمسة من الفجرة بخبر مثلا فنحن نناشد الله كل ذي عقل و بصيرة هل يحصل له العلم الضروري بخبرهم وهل يمتنع عنده تواطؤهم على الكذب لكونهم جمعا حتى لو كانوا كفارا فجرة اخبروا مرة دفعة واحدة ؟ فان كابر وقال نعم قلنا له وهل يجب ان يحصل لكل احد مثل علمك من خبر هؤلاء ؟ وهل تعد من خالفك مكابرا بدلا عن تكون انت المكابر ؟ نحن نستبعد ادعاء عاقل مثل هذه الدعاوي الباطلة

وكذلك نقول ان كل جمع يفرضه التواتر مفيدا للعلم من جهة انه جمع فقط لا بد ان يرد عليه ايراد صحيح ينقضه الا إنه في بعضها اين واظهر من بعض الا ترى ان اعلى ما مثلوا به لذلك هو قولهم كأن يخبر اهل باريس بقتل او موت كبيرهم مثلا قالوا ان هذا يفيد العلم بسبب كثرتهم . ونحن نقول في الجواب عن ذلك هذا مثال واحد ولا يمكن وجود مثله دائما حتى يصح طرده في كل موضع مما يتنازع الناس فيه . ويقال فيه ايضا يمكن ان يكون افادة الخبر العلم في مثل هذا المثال انما كان لقرائن كونهم اي اهل باريس ونحوهم لا فائدة ولا نقصان ولا مضرة عليهم من اظهار مثل هذه الواقعة فصدقهم هنا انما هو للقرائن لا الكثرة لانا نجد الفرق بين مثل هذا المثال وبين خبر اهل باريس أنفسهم فيما اذا كانوا محصورين بعساكر الانكليز مثلا فاخبروا بقدوم عساكر الروس الى بلدهم لامدادهم فهل خبرهم والحالة ماذكرنا يفيد العساكر المحاصرة العلم الضروري بحيث لا يتشوفون الى صحته ؟ وهل يمكن كذبهم والحالة هذه ام لا ؟ نحن لا نستبعد الكذب فضلا عن عدم امكانه حينئذ

فان قيل نحن نرى انفسنا مطمئنة لا ينازعها شك في وجود البلدان النائية التي لم نرها ولا نرى سببا لذلك الا ماتواتر الينا من الاخبار بوجودها

قلنا نعم والامر كذلك لكن لا يستلزم ان يكون سبب هذا العلم مجرد الكثرة

وان كانوا كفارا او فسقة فجارا بل لعل ذلك من الكثرة مع انضمام القرائن

فان القرائن انواع واصناف لايكاد يحصرها حد أو عد بل القرائن قد تقارن خبر الواحد الكاذب المعروف بكذبه وفسقه فيفيد خبره العلم اذا قارنته وايدته وهي تختلف باختلاف اماكن المخبرين وزمانهم ككونهم اخبروا دفعة او متفرقين و باختلاف حالهم من خوف وأمان وعسر ويسر وحب الاوطان والاقدام والفخر وارهاب ورجاء الى غير ذلك مما يعود على الافراد بفائدة او نقص ولو بتوسط فائدة اونقص طوائفهم وامهم واقوامهم واوطانهم

ولما ذكرناه واضعاف اضعافه مما لم نذكره ولتعسر ذلك لو سلم صحته ولان تكليف العباد به تكليف لما لا يستطاع بل التزامه وحصر العلم الخبري فيه تعطيل لاكثر معارف البشر وإلغاء لاكثر الاحكام الديانات ان لم تقل لكلها واحراج للناس في جميع معاملاتهم ومعاشاتهم وموجب لتقاطعهم فردا فردا كالبهائم لم يجعل الله ذلك اصلا ولا قاعدة ولا مناطا لتحقيق شيء من الامور الدينية ولا الدنيوية ولا نبه عليه احد من انبيائه عليهم الصلاة والسلام ولم نعرفه عن احد من السلف الصالح لا الصحابة ولا تابعيهم باحسان

فالحق عندنا ان اخبار الجموع لاتفيد العلم الا اذا ايدتها القرائن او شاركهم الثقات — وخبر الثقات المتواتر هو اعلاها كتواتر القرآن الكريم — ثم خبر الآحاد الأثبات الضابطين بشروطهم يفيد من عرف حالهم او حال من وثقهم العلم ويجب على من بلغه خبر عن المعصوم (ص) ان يبحث عن حاله وحال رواته فاذا وجدهم بالشروط المعتبرة فلا يجوز له اهمال ذلك الخبر لاجل كونه لم يتواتر لما عرفت مما قدمناه كما هو اجماع المسلمين والله المستعان (للرسالة بقية)

اهم الاخبار والآراء

(اعادة القانون الاساسي ومجلس المبعوثان في الدولة العلية)

في صبيحة يوم الجمعة المبارك ٢٥ جمادى الآخرة صدرت الإرادة السلطانية بإعادة « مجلس المبعوثان » والأوامر من مقام الصدارة الى الولايات بالانتخاب. فشمل الفرح والسرور جميع العثمانيين في دار السلطنة وجميع الولايات وفي جميع أقطار الأرض وعدوا هذا اليوم العظيم عيداً عاماً للأمة العثمانية على اختلاف مللها ونحلها

أما سبب نيل هذه الامنية التي تشوف اليها العثمانيون من نحو ثلث قرن بعد ما سلبت منهم فهو التدبير العظيم الذي قامت به جمعيات الاحرار العثمانيين في أوربا ومصر بعد اتحادها ودخول كبار ضباط الجيش المستنيرين فيها وربما نين ذلك في وقت آخر

وما كاد نبأ البرق يوافي مصر بهذه البشرى حتى انبث فيها بين العثمانيين من الترك والسوريين والأرمن وغيرهم فأنشأ يهنيء بعضهم بعضاً والبشر يتدفق من وجوههم . ثم طاف جمهور منهم في الشوارع الكبيرة بالقرب من الازبكية وهم يهتفون بالأناشيد العثمانية

ثم اجتمع مئات منهم في ردهة قهوة « اسبلندديار » وطفق يترنم بعضهم بالاناشيد والآخرون يصفقون لهم . وقام غير واحد منهم فخطبوا بالتركية وقام صاحب هذه المجلة فخطب بالعربية خطبة وجيزة صفق لها الجمهور من حملة الطرابيش والبرانيط بهجة واستحساناً

كان موضوع الخطاب ان هذا اليوم عيد لجميع العثمانيين على اختلاف مذاهبهم وأديانهم واجناسهم وان الفضل في نيلنا الدستور عائد لمساعي أحرارنا وجمعياتنا السياسية وضباطنا ذوي البسالة والحمية ، وانه يجدر بنا معشر العثمانيين ان نفاخر جميع الأمم بنيل الدستور من غير ثورات داخلية تراق فيها دماء الالوف ويهلك فيها الحرث والنسل : وأنه ينبغي لنا ان ننسى الماضي وان نعمل للمستقبل فنظهر للامم كلها اننا أهل لهذا النوع الراقي من الحكومة فيجب ان يتحد التركي والعربي والرومي والارمني وسائر الاجناس العثمانية ويقوموا بالاعمال التي ترفع شأن البلاد على قواعد المحبة والمساواة ...

ومما قلته ايضاً اننا نشكر لحضرة السلطانية المبادرة الى اجابة طلب الضباط الناطقين بلسان أحرار الامة . فبطل التصفيق او قل عند ذكر السلطان وأشار كثير من الترك والأرمن اشارات الانكار

وفي يوم السبت التالي اجتمع في دار رفيق بك العظم جمهور عظيم من فضلاء العثمانيين المختلفين في الجنس المتحدين في العثمانية لأجل المذاكرة في تنظيم مظاهرة باعلان السرور وإرسال برقيات الشكر الى جمعيات الاحرار في أوربا والى الاستانة وقد كانت جمعية الشورى العثمانية قررت في يوم الاربعاء الماضي جمع اكثر هؤلاء الاحرار للمذاكرة في شؤون الثورة ومطالبة الصدر الاعظم سعيد باشا بأن يختم تاريخه بمساعدة الامة على اعادة الدستور وجمع «مجلس المبعوثان» فلما بشرنا البرق في مساء يوم الجمعة بصدور الارادة السلطانية بذلك تحول مقصد الاجتماع الى ماذكرنا

اقترح الجمهور ان ترسل تهنئة برقية الى الامير صباح الدين داماد (ابن اخت السلطان) رئيس جمعيات الاحرار بباريس يشكر له فيها سعيه وسعي الاحرار ويكلفه فيها ان يبلغ نيازي بك رئيس الضباط الذين اظهروا الثورة العسكرية في مكدونية وإخوانه كنوري بك وانور بك شكرهم وسرورهم . ورسالة اخرى الى الصدر الأعظم

فاقترح صاحب هذه المجلة إرسال رسالة خاصة الى السلطان . قلت : ان ضباطنا واحرارنا طلبوا والسلطان أعطى فنشكر له أنه قدر الحال حق قدرها وبادر الى الاجابة ولم يضطر الجند الى سفك الدماء . فوافقني على هذا الاقتراح من حضر من السوريين اكثرهم بالقول وبعضهم بالسكوت . وعارضني اكثر الترك والأرمن وقال واحد من اشهر احرار الترك : انه لم يجب الطلب فضلا واحسانا ولكنه اجابه بعد ان أشرعت في وجهه مئة وخمسون ألف حربة (سنكه) وقال بعض المعتدلين منهم لا بأس بأن يذكر في تلغراف الصدر الاعظم تبليغ السلطان سرور العثمانيين وبعد طول البحث انتخب الجمهور لجنة منهم لتقرير ما يجب وجعلوا رئيسها اسماعيل حقي بك القائمقام العسكري (لان الدستور رجع بقوة الجند) فقررت ان تحتفل في احد دور التمثيل احتفالا يخطب فيه العثمانيون بالتركية والعربية والفرنسية

والارمنية والرومية . وان يعرض على الجمهور المحتفل صورة رسالتين برقيتين احداهما للامير صباح الدين افندي والثانية للصدر الاعظم وترسلان بعد اقراره عليهما . وقد بذل الحاضرون ما يلزم من النقود لاجل ذلك بغير اكتتاب بل بمجرد الاريحية .

وفي مساء ذلك اليوم اجتمع جمهور من المصريين في حديقة الازبكية لاظهار السرور بنيل العثمانيين للدستور ومجلس النواب (المبعوثان) حضرنا هذا الاجتماع في اثنائه واقترح علينا حسين بك تيمور الذي دعا الى الاحتفال وبعض العثمانيين ان نخطب بالحاضرين خطبة تناسب المقام وكان جل اقوالهم إطراء للسلطان بأنه تفضل وتكرم بالدستور اي بغير علة ولا سبب ، ولا ثورة ولا طلب ، وان جيوشه منتشرة من منابع النيل الى سيلان ! ! ! ثم رأينا الجرائد كتبت عن هذا الاحتفال فوصفته الجريدة والمقطم كما حصل وذكر اللواء عنه نبذة صغيرة معظمها كذب . وهذا ما جاء في الجريدة

مظاهرة في حديقة الازبكية

اعلن حضرة حسين بك تيمور — انه سيخطب في حديقة الأزبكية نحو الساعة السادسة بعد ظهر أمس لاظهار السرور بمنحة الدستور لاخواننا العثمانيين . فبناء على هذا الاعلان توافد الناس من خاصة وعامة الى حديقة الازبكية ولما وافت الساعة السادسة التفوا حول كوشك الموسيقى فافتتح الخطابة حضرة ربيع افندي المدرس بالمدرسة التحضيرية فبسط كلمة عن فوائد الدستور ثم قال اننا نؤمل البلوغ الى غايتنا من نيل المجلس النيابي وان طال علينا الامد . ثم اختتم خطبته بالدعاء لجلالة السلطان والامة العثمانية والجناب العالي . وتلاه شاب يدعى الشيخ حسين الغزي من طلبة العلم في الازهر الشريف فحذا حذو الخطيب الاول في الموضوع ثم تلاه حضرة الشيخ صادق عمران فتلا قصيدة يمدح بها جلالة السلطان والامة العثمانية ثم طلب جماعة من رجال الصحافة والادب إلى حضرة الاستاذ العلامة السيد رشيد رضا صاحب مجلة المنار أن يتكلم في الموضوع كلمات تروي الغليل فأجاب دعوتهم واوفى مكان الخطابة فقال ما خلاصته

« هذا اليوم هو عيد للعثمانيين عامة وعيد المسلمين خاصة فانه عيد بحكومة

الشورى التي يتمتع بخيرها العثمانيون كافة من جميع الملل والاجناس . وحكومة الشورى التي قررها الاسلام بقوله تعالى « وأمرهم شورى بينهم » وقوله « واذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه الى الرسول والى أولي الامر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم »

مسائل الأمن والخوف من الامور العامة المتعلقة بسياسة الامة وإدارتها ولم يفوّض القرآن الامر فيه الى الرسول (ص) وحده وهو الامام المعصوم وصاحب الشريعة ومبلغها بل جعل الامر فيها اليه والى أولي الامر من الامة يديرونها بالشورى بينهم

من هم أولوا الامر ؟ زعم بعض المحرفين أو المخرفين ان أولي الامر هم الملوك والسلاطين وهو زعم ظاهر البطلان فان الرسول لم يكن معه حين نزلت الآية ملوك وسلاطين وانما كان يستشير أولي الرأي والمكانة من الامة فهم أولو الامر بغير نزاع

أفرأيتم هذه الهداية إلى حكومة الشورى وسلطة الامة . هل يوجد عناية وتأكيد في شريعة ودين أبلغ منها ؟ اذا كان رب العالمين لم يرض ان يكون خاتم رسله مستقلاً بادارة الامور العامة دون أهل الرأي من أمته فكيف يرضى أو يشرع لغيره ممن هو دونه بذلك ؟

مع هذا كله لم تلبث حكومة الاسلام بعد الخلفاء الراشدين ان صارت شخصية استبدادية ولا نخوض في الكلام عن الماضي فانما غرضنا الكلام عن الحاضر

تقلب الزمان ودالت الدول ودخل العالم الانساني في طور جديد فسبق غير المسلمين الى حكومة الشورى وكانت حكومة دولتنا العلية وهي شخصية على خطر بين الحكومات النيابية الشورية المجاورة لها ففكر بعض أصحاب العقول الكبيرة فيها من نحو نصف قرن في جعل الحكم بيد الامة وانفذوا ذلك من نحو ثلث قرن فوضعوا القانون الاساسي وأنشأوا « مجلس المبعوثان » الذي تعبرون عنه بمجلس النواب ولكن لم تلبث السلطة المطلقة ان استردت هذه المنحة أو هذا الحق منهم

لو كانت الامة العثمانية في ذلك الوقت مستعدة للدستور استعدادها اليوم لما أمكن أخذه منها ولكنها لم تنله باستعداد الجمهور بل باستعداد أفراد من نابغي وزرائها أصحاب الادمغة الكبيرة والافكار البعيدة والغيرة الشديدة كمدحت باشا واخوانه

لم يكن العقلاء في الامة العثمانية يعدون على الاصابع فيموت الدستور بموتهم بل كان في الامة كثير من أهل التربية العالية والمعارف السامية ولكنهم لم يكونوا منبثين في الامة كلها ولا مشتغلين باشراب روحها معنى الحكم الذاتي

فلما رأوا أنفسهم قد سلبوا ما فيه سعادة الامة وعزة الدولة وانه لا سبيل الى استرجاعه من الاعلى كما جاء أولاً بتدبير مدحت باشا وحسين عوني باشا وإخوانهما رأوا ان يطلبوه من جانب الامة بتوجيه نفوس المتعلمين اليه فانشأوا الجمعيات السرية التي ظلت تسعى وتدأب وتصارع الصعوبات حتى اتيح لها الظفر الآن ونالت ما تتمناه »

ولما بلغ هذا المقام من البيان التاريخي المفيد كبر على أناس لم يفقهوا قوله فحدث شيء من الشغب وانقطع الخطيب عن الخطابة اه كلام الجريدة

وأزيد على ما ذكرته الجريدة ما جاء في بعض الصحف وهو ان بعض المصريين صاح ليحي السلطان . لتسقط تركيا الفتاة . او حزب تركيا الفتاة . فصاح بصياحه جمهور من الحاضرين فاستاء من كان هناك من فضلاء الترك وغيرهم من العثمانيين وقال قائل منهم : ياشيخ رشيد لا تتكلم على هؤلاء الذين لا يفهمون .فما زادهم ذلك الاصياحا بسقوط تركيا الفتاة اي الامة العثمانية في حياتها الدستورية الجديدة!!! وظنوا لجهلهم ان من لوازم حب السلطان ان يعيش على شيخوخته وضعفه عمر اطويلا بغير امة او بامة ميتة وجودها كالعدم فهكذا يكون الاحتفال بالدستور!!

اما العثمانيون الاخيار فقد جعلوا موعد احتفالهم مساء يوم الثلاثاء غرة رجب وأن لا يذكر الخطباء فيه اسم السلطان بذم ولا مدح ولا تهنئة ولا شكر عملا برأي السواد الاعظم وخلافا لرأي اكثر السوريين وهم العدد الاقل في جمهور المؤتمرين بالاحتفال وسنذكر شيئاً عن الاحتفال في الجزء الآتي

أرسل الينا كثير من المحبين رسائل التهاني بنيل أمتنا الدستور لعلمهم بما أصابنا من الاستبداد منها ما طار به البرق ومنها ما عدا به البريد منها ما هو بعنواننا الخاص ومنها ما هو بوصف جمعية الشورى العثمانية . فنشكر لجميع المهنئين عاطفتهم الشريفة ونخص بالذكر لجنة الشورى العثمانية في البرازيل وربما ننشر شيئاً مما فيه العبرة والفائدة من تلك الرسائل

الفصل العاشر (*)

محمد (عليه الصلاة والسلام) قبل تزوج خديجة

واذا العناية صاحبت مرءا فلا تكثر سؤالك فيه كيف ولم وما
ودع التردد إن أتاك حديثه مهما حوى مهما نما مهما سما

لا تسأل كيف أبدع الإنسان من فتق الكواكب من رتق موادها، وقدر مدارات لحركاتها، ونظامات لتقابلها، وأنشأ منهن المقتبات ليلنا ونهارنا، المدبرات صيفنا وشتاءنا، الناظمات في أحشائهن شملنا، الملذات بنسائهن نسماتنا، وبأرواحهن كياننا، ولا تسأل لم خلق لنا الأرض جميعا نشرح أحشاءها، ونقطع أوصالها، ونستخرج أثقالها، قد حصرناها على عظمها في يدنا، وحشرنا كل مافيها في ذرات صغيرة من دماغنا، ان شئنا نرفع من شأنها بما نركب من أجزائها، فيأتي منها من البدائع مايدهش ألبابنا، ويسحر أبصارنا، وان شئنا لم نعبأ بها، واستشرفت نفوسنا الى غيرها، فاطلعنا الى مصادر الأرواح ومواردها، ومشارق الأسرار ومغاربها، وارتقينا الى ينابيع الأكوان ومظاهرها، وتلمسنا ثمة حياة لا نحتاج فيها الى ماء الارض وهوائها، وترابها ونارها

ولا تسأل كيف تقاربت صورنا معشر الإنس وتباعدت حقائقنا، ولم طالت آمالنا وأعمالنا، وقصرت آجالنا وأعمارنا، ولم جشمت نفوسنا تكثير الصور ثم شغفت كل نفس بأنواع منها، وتخالفنا في تمييزها وترجيح

(*) من سيرة السيدة خديجة

بعضها على بعض، وتدابرنا في مناهج طلابها، وتقاطعنا في سبيل اكتسابها، ولم هذا البون في أنصبائنا، والفرق في مراميناء والبعد في مدارجنا، والتين في معارجنا،

ولماذا منا أناس مع الكواكب مداركهم سابحة في أفلاك الحقائق، وبروج الرقائق والدقائق، ومع الانوار سيرهم منتشرة في سابق الدهور ولاحقها، وبادي الشعوب وحاضرها، وآخرون مع الديدان مشاعرهم دائبة بين أوراق الاكمام وأحطابها، أو تحت دخان القفار وقصبها، ومع العصف صورهم منطوية في احشاء الاواكل، ومندوجة في الاواخر مع النوائم الاوائل

لا تسأل عن هذا كله ان كانت نفسك قد وقفت عند مطمأنها من معرفة الاول الآخر، الظاهر الباطن، ذي الحياة الازلية الساري سرها في الاكوان والوجودات، البادي خط جلالها وجمالها على لوح الآيات البينات، من الاشكال والتنوعات، ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون * ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون * ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ان في ذلك لآيات للعالمين * ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله ان في ذلك لآيات لقوم يسمعون * ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماء فيحيي به الارض بعد موتها ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون * ومن آياته أن تقوم السماء والارض بأمره ثم اذا دعاكم دعوة من الارض اذا أنتم تخرجون

اذا وقفت نفسك عند هذا المطلب من المعرفة فطلبها تصل بك الى معرفة ان ذا الحياة الازلية ذو حكمة ليس في وسع استعدادنا ان نحيط باسرارها خبراً مهما حامت حولها آمال مداركنا ، ومهما طافت في سوح قدسها صوافي سرائرنا ، فأخلق بأحدنا أن يتذكر في هذه المسابح الفكرية عجز أجنحة عقولنا عن أن تصل بنا الى مادون هذا السر الاعظم ، ووقوفها بنا في كثير من أشراك الاوهام في الوجودات التي هي تحت حسوسنا ، وفي جوار جسومنا ونفوسنا

وعسى أن ترقى بك هذه المعرفة الى الاذعان بأن هذا الحي الازلي الحكيم ذو عناية ربانية لا يحاسب على مايختص بها من يشاء فله الامر كله فيما يبدي ويصور ، وله الحكمة فيما ينوع ويميز ، منه كل شيء واليه المآب

وان كنت في ريب من الحكمة الازلية ، والعناية السرمدية ، فدع نفسك واقفة ماشاءت في حمة النفي ، أو دائرة في سجن الشك ، أو طائرة في جو الوهم لاقرار لها . وانما نحكي هنا للذين لم يريهم يؤمنون

* * *

سبق في العناية الازلية أن تكون هداية شعوب كثيرة الى أقوم سبل الحياة على يد رجل من العرب يرتفع به اسمهم في العالمين وكان من هذا الشرف الذي أعده الله للعرب أعظم نصيب لعبد المطلب الذي أخرج الله انسان هذه الهداية من أولاده

كان عبد المطلب [1] من كبار أشراف قريش ورزق عشرة أولاد

---

(١) اسم عبد المطلب شيبة ولقبه بعبد المطلب حكاية وهي ان أباه هاشما

من الذكور وكان ابنه عبد الله أحبهم اليه فزوجه شريفة من شرائف قريش من بني زهرة تدعى آمنة فحملت منه وقبل أن تضع حملها توفي فلما وضعت كفل وليدها جده وكان هذا الوليد المبارك «محمداً» صاحب القرآن

فما أسعدك ياعبد المطلب أكنت تدري وأنت في أبواب أبرهة الحبشي تتطلب منه رد ذلك القليل من الابل الذي لك مما استاقه من إبل مكة أن سيولد لك في هذا العام حفيد تنتهي أعناق الملوك في الاجيال المقبلة خاضعة لذكره

أكنت تفكر اذ قصارى أملك حفظ مقامك بين قومك المتقطعين في تلك البرية ان اسمك سترن به المحافل في الامصار النائية والشعوب المختلفة على مدى عصور كثيرة كلما ذكر نسب حفيدك العظيم الذي أعتده الله لمنصب يتبعه من أجله العالم ويبقى ذكره فيهم الى الابد

أخطر على قلبك أن بلدك المقدس الذي لم يكن يحج اليه الا العرب ستحج اليه كل شعوب الارض اتباعاً لما جاءهم به حفيدك من الهداية

أجاء في خلدك ان كنتك آمنة الزهرية انما ولدت من يشرف الله به قومك ويجمع به كلمتهم ويعلي سلطانهم وينشر لغتهم ويقيم لهم مجداً تتم الدهر مذكوراً، وفي كتاب العالم مسطوراً

= كان قد تزوج أمه من بني النجار في «يثرب» (المدينة) فلما ولدته تركه عندها حتى كبر وكان هاشم تاجرا فخرج بتجارة الى الشام فمات في «غزة» فذهب أخوه المطلب بن عبد مناف ليأتي بابن أخيه فأبت والدته أن تعطيه اياه حتى أقنعها بأن اقامته في بلدته وبين قومه وعشيرته خير له ولما جاء به كان مردفه خلفه على بعير فظنت قريش انه عبد ابتاعه فقالوا عبد المطلب وقال لهم المطلب ويحكم انما هو ابن أخي هاشم قدمت به من المدينة ولكن ذاعت كلمة عبد المطلب فاشتهر بها وصارت كأنها علم له

هل كنتَ ملهما اذ سميته محمدا ؟ وكنت على رجاء كبير بأن يقيم له العالمون تحميداً لا ينقطع ، وتمجيداً لا يزول ؟

أعرفت أنك تحفظك هذا اليتيم وكفالتك اياه وعنايتك به انما كنت تحفظ للعالم كله التحفة التي أتاهم الله من كرمه ، والوديعة القدوسية التي اختص الله بيتك ظهورها ، وقومك لانتشار مبدإ نورها

فأنت بما أوتيت من هذه السعادة الخالدة جدير ايها المخصوص بعناية الحي الأزلي ، فليدم ذكرك جلالا للمحافل واسمك ساميا مع اسم حفيدك نبي الشعوب وبركة العالم

***

كانت ولادة محمد في القرن السادس من ميلاد المسيح عليهما الصلاة والسلام اي حوالي سنة سبعين وخمسمائة منه وحوالي السنة الثامنة والأربعين من ملك كسرى انوشروان . ولم يكن قومه يعرفون سني الامم ، تواريخها ولا سني انفسهم وانما كانوا يحفظون الأعمار ويوقتون آجال الأشياء بالوقائع الشهيرة والحوادث العظيمة كما هو شأن الامميين الى عهدنا

ولعام الفيل وهي سنة اشتهرت بهذا الاسم لوقوع حادثة فيها عندهم تدور صفوة حكايتها على حرز فيل القائد النجاشي وابائه المسير تلقاء مكة فلذلك سميت بهذا الاسم . وحادثة الفيل شديدة الشهرة ويصح ان نقول انها من التاريخ المقدس عند المسلمين أي انها ذكرت في القرآن ولكن على اسلوبه في القصص التي يذكرها لاجل العبرة فقط لا على أسلوب المؤرخين وتلة الاخبار

وقد أعطى الرضعة على عادة قريش في اعطائهم الأولاد للمراضع من القبائل النازلة قرب مكة ابتغاء ان تتربى أجسامهم في البادية حيث الارض النظيفة قد كسيت من الازاهر أبدع المفارق الطبيعية ، والنسائم

متحملة من ذلك المير تهديه الى النفوس رائحة وغادية

* * *

اذا بزغ رأس النهار أرسل الى أفئدة أهل النشاط روحاً مبشراً بطيب عقبى العمل، وسوء مستقلب الكسل، وكأن بينه وبين سكان البراري وساسة الأنام عهداً ان لا يقبل بطلعته الباسمة الا وهم مستقبلوه بالتحيات الطيبات من مباسم همهم، وثغور اجتهادهم، وراقون اليه آيات الشكر على ماله من الايادي البيضاء في اخضرار عيشهم، وابيضاض وجوه آمالهم

بزغ الفجر يوماً على نسمتين في أباطح تهامة قد أسفر عليهما البشر، وقذفت الغبطة من أعماق جوانحهما الى أسارير وجهيهما، ولم يكن ذلك الانس والبشر لما حولهما من مجالي عرائس الطبيعة لان السماء كانت شحيحة عليهم تلك السنة فلم تترع حياضهم، ولا أونقت رياضهم، ولم يصن الوادي لهم القليل مما أغيثوا به مرة لقتلهم الظمأ - ولا لما حولهما من وافر الرزق وسابغ النعم لانهما لم يكونا يملكان الا فنيات قد جارت عليها السنة، وقتلها الجهد والجدب، ولكن كان ذلك السرور بنعمة جديدة أصابها فلانتهما فرحاء وأشبعتهما ابتهاجا، ولم يكونا يفتران عن هذا الحديث الذي كانا يتغذيان به صباح مساء، ويجددان به شكراً على هذه النعماء، وهذا ما كانا يتحدثان به:

— حقا يا حليمة انك قد جئتنا بتحفة سنية ونسمة مباركة

— أي والله يا حارث وانظر ما أجله، انظر الى هذه الاشفار الهدب، انظر الى هذه العيون الدعج، انظر الى هذا الجبين الازهر، انظر ما أبهى انعكاس هذا الضياء المقبل من الشرق على مرآة هذا الجبين

كان هذا الحديث يجري بين امرأة وزوجها من قبيلة بني سعد صبيحة يوم كانا قبله في مكة وكانت هذه المرأة هي التي جاءت بحفيد عبد المطلب

لترضعه وقد حدثت هي حديثها كيف جاءت به وكيف رأت من بركته قالت

خرجت مع زوجي وابن لي صغير على أتان لي قمراء [١] معنا شارف [٢] لنا والله ما تبض بقطرة وما ننام ليلنا أجمع من صبينا الذي معنا من بكائه من الجوع ما في ثديي ما يغنيه ، وما في شارفنا ما يغذيه ، ولكنا كنا نرجو الغيث والفرج ، فخرجت على أتاني تلك فلقد أذمت [٣] بالركب ضعفا وعجفا حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء فما منا امرأة الا وقد عرض عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فتأباه اذا قيل لها انه يتيم وذلك انا انما كنا نرجو المعروف من أبي الصبي فكنا نقول يتيم وما عسى أن تصنع أمه وجده فكنا نكرهه لذلك فما بقيت امرأة قدمت معي الا أخذت رضيعا غيري فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبي « والله اني لأكره أن أرجع من بين صواحبي ولم آخذ رضيعا والله لأذهبن الى ذلك اليتيم فلآخذنه » قال لا عليك ان تفعلي عسى الله ان يجعل لنا فيه بركة ، قالت فذهبت اليه فأخذته وما حملني على اخذه الا اني لم أجد غيره . قالت فلما أخذته رجعت به الى رحلي فلما وضعته في حجري أقبل عليه ثديي بما شاء من لبن فشرب حتى روي وشرب معه أخوه حتى روي ثم ناما وما كنا ننام معه قبل ذلك . وقام زوجي الى شارفنا تلك فاذا انها لحافل [٤] فحلب منها ما شرب وشربت معه حتى انهينا ريا وشبعا فبتنا بخير ليلة قالت . يقول صاحبي حين أصبحنا تعلمي والله يا حليمة لقد أخذت نسمة مباركة قالت فقلت والله اني لأرجو ذلك . قالت ثم خرجنا وركبت أتاني وحملته عليها معي فوالله

---

(١) القمراء بالضم لون الى الحضرة أو بياض فيه كدرة . حمار أقمر وأتان قمراء

«٢» الشارف الناقة المسنة «٣» أذمت بالركب أي حبستهم لانقطاع سيرها من عجفها أي هزالها وضعفها «٤» حافل كثيرة اللبن

فقطعت بالركب ما يقدر عليها شيء من حرمها حتى ان صواحبي ليقلن لي «يا ابنة ابي ذؤيب ويحك اربعي علينا [1] أليست هذه أتانك التي كنت خرجت عليها؟ فأقول لهن: بلى والله انها لهي. فيقلن «والله ان لها لشأناً

قالت ثم قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد وما أعلم أرضاً من أرض الله أجدب منها فكانت غنمي تروح على حين قدمنا به معنا شباعاً لبناً فنحلب ونشرب وما يحلب انسان قطرة لبن ولا يجدها في ضرع حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعي بنت ابي ذؤيب. فتروح أغنامهم جياعاً ما تبض بقطرة لبن وتروح غنمي شباعاً لبناً فلم نزل نعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه وفصلته وكان يشب شباباً لا يشبه الغلمان»

فيالك من سعيدة يا حليمة اذ كتب لك ارضاع اليتيم الذي تربيه العناية الخاصة ولم يكشف لك من آثارها الا هذه البركة التي ملأت بيتك وماشيتك ولكن أيتها المراضع النبيات المرضات عن اليتيم التماساً لارضاء الذين لهم آباء. لقد فاتكن الحظ وما الحظوظ بالاختيار، وعزاء لكن أيها اليتامى فقد عاش محمد العظيم يتيما

* * *

بعد ان ربي «محمد» (ص) في بني سعد عند السيدة حليمة جيء به الى أمه فذهبت به وهو ممتلئ قوة وهو ابن ست سنين الى المدينة لتزيره اخواله من بني عدي بن النجار وفي عودتها الى مكة توفيت في مكان يسمى الأبواء. وكان عبد المطلب شديد العناية بحفيده ويرسم فيه نور الشأن فلما بلغ الثامنة من عمره ودّعه بنظرات الحنان وأودعه بين يدي الخطاب الآلهي الذي من لدنه وارمات الدهر والتركت الدهور والاجيال على

---

[1] اربعي أي ارفقي واقصري

وقام مقامه ابنه ابو طالب شقيق عبد الله ابي النبي (ص) فأدخله في آل بيته وتعهد تربيته وتثقيفه

وكان أبو طالب امرءاً نبيلاً شهماً صادق المروءة ماضي العزيمة، نصاراً للعدل والانصاف. عرفنا كل ذلك فيه من تكليفه نفسه اقصى ما يمكن ان تكلف النفس في حماية ابن اخيه لما قام بالدعوة ومن مواقفه أمام قريش في نصره والذود عنه. وقد خلف ابو طالب أباه عبد المطلب في المقام السامي بين قومه فكان ابن عبد الله يتنقل في بروج العز والسؤدد والسعادة في آفاق الشرف الهاشمي، وتتطبع في جوهره الكريم صور البر والعدل والاحسان على مثال الخلال الشريفة التي كان يتحلى بها ذلك الرجل السامي التربية (أبو طالب)

نحن قد رأينا من آثار العناية الالهية بذلك اليتيم العزيز ما يصح القول معها انه كان مستغنياً عن تربية أحد ولكن لماذا لا نقول ان إعداد ذلك العم الفاضل لتربيته في الصغر كان من جملة آثار العناية الفائقة به

أما تربيته اياه التربية الجسدية فقد كانت على غاية ما يتصور عليه الصحة ولذلك جاء من آثارها قوة جسدية لهذا المبارك لا نظير لها وصار على صورة من الجمال كانت تجعل الذين يرونه يقولون لم نر مثله. ولا يتم الجمال الا بصحة البدن وهي انما تتم بحسن التربية الجسدية

واما تربيته اياه التربية العقلية فكانت جديرة أن يسجد أمامها فلاسفة النفس وأساطين العقل وهناك من آثارها قبل النبوة ما يجعلنا في حيرة من أمر هذه القبيلة الصغيرة المبتعدة في دارها عن مناشئ الارتقاء العقلي، ومناهج الإشراق الفكري، لا كتب يدرسونها، ولا قوانين للمعارف يرتبونها، ولا شيء من الغرائز طبية يتوارثونها، وقواعد عامة يتناقلونها، وصحافة أو نحوها

في نفس أصح التجارب في المدارك، والاحتفاظ بأثبت الفوائد في الذواكر، وكذلك يفعلون في التربية الاخلاقية ينشئون الذرية على دروس المشاهدة في مدارج العمل، ودروس القصد والاعتدال في معارج الأمل، فيأتي من تلك السلائل التي لم تلحقها عدوى الاجيال الفاسدة نوابغ في العقول والاخلاق، أفذاذ في الهمة والاعمال، يطبع من المربين، ونقش من المتقنين، وذلك كان شأن أبي طالب ودأبه مع ابن أخيه العزيز، وربيبه النجيب، نشأ «محمد» (صلوات الله عليه) في أمثل التربية بأنواعها كلها على يد ذلك الفاضل العظيم فجاء منه رجل أحسن الناس خَلقاً وخُلقاً، أذكاهم عقلاً، وأزكاهم نفساً، وأصدقهم لساناً، أندادهم في المعرف يداً، وأثبتهم في الأزم قلباً، أرحمهم للضعيف، وأشجعهم على القوي، أبرهم للقريب، وأعدلهم للبعيد، أقربهم الى المعروف سعياً، وأبعدهم في الامور نظراً، أسدهم رأياً، وأشدهم اقداماً، ألينهم للصاحب جانباً، وأكرمهم للخير صاحباً، وحسبك انه عرف منذ صباه بالأمين وما زال على هذا المنوال حتى أكرمه الله بذلك المنصب العظيم فزاده جمالاً وجلالاً وكمالاً والله أعلم حيث يجعل رسالته

نشأه ذلك المربي على كل ما يزين الرجال من الاعمال فلما كان ابن اثنتي عشرة سنة سار به الى الشام وكان أبو طالب تاجراً فأوقفه في هذا السفر على ما تكمن الارض وتعلن من طبائع الاقاليم المتغيرة، وأحوال العالم المتحولة، ففي طريقهم من مكة الى الشام منازل أمم كانت فبانت. كانوا على وجه الارض جمالاً لما فلما فسقوا عن السنن التي تحيا بها الامم شانت نعامتهم طراً، وطارت نعمتهم جميعاً، وأصبحوا كأن لم يكونوا «فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم الا قليلا» وفي رؤية أمثال هذه المنازل الخاوية

أو المنتقلة الى غير أهلها عبرة عظيمة هي أجل ما في السفر من الفوائد. ولقد كان فيما أوحي الى هذا المنعم عليه بعد ان صار نبيا قوله سبحانه «أولم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الارض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون»

وفي طريقهم هذه أوقفه عمه على قرى الشام ودساكرها، ومزارعها ومعاصرها، ومتاجرها وحكومتها، وأراه كيف يكدح الناس جميعا ليأكل نفر منهم خبزه بعرق جبينه، وليتمتع نفر آخرون بثمرات تلك الارض الطيبة، ونفائس ما تحمله تلك الايدي الكفقة، وكيف يعمل هذا لهذا في الاجتماع ليتم قوامه، ويحفظ نظامه

ومر به على الاديار والصوامع حيث ينقطع نفر آخرون عن المزاحمة في هذا المطعام الزائل، متوجهة نفوسهم الى الوطن الذي يليق بالروح الفريدة في هذا الهيكل الجسماني، غير ممدودة أيديهم الى شيء من هذه الارض الا الى ما يقي البدن من جوع وعري وذلك يتيسر ببعض حبوبها وأعشابها، وبعض أصواف حيوانها وأوبارها

في بعض تلك الاديار في «بصرى» وقف به على الراهب «بحيرا» وكان على حظ عظيم من علم الفراسة أو الكهانة فأنبأه بما سيكون لابن أخيه من الشأن العظيم وأوصاه بمزيد العناية به

وفي هذه السفرة مرنه على أساليب التجارة، وأطلعه على ضروب البضاعة، وصنوف الاداة والماعون التي يتعاطى التجار تبادلها وكيف يحمل كل منهم من بلده ما لا يكون في غيره ثم يحمل الى بلده ما ليس فيه وكيف

يكون لهؤلاء الوسطاء في نقل حاج الناس من الفضل العظيم في ترقية البدائع الانسانية مالبس لغيرهم

فاهيك بما ملأ به أبو طالب ذهنه في هذه السياحة التجارية من صنوف المعارف وأنواع التجارب وفي دون كهذا من فوائد التربية العملية مالبس في ألف درس من التربية الكتابية أو النظرية

ولما كان ابن أربع عشرة سنة أحضره معه في حرب الفجار وهي حرب هاجت بين قريش وبين قيس فرأى في هذه الواقعة كيف تعبأ الصفوف، وتقابل الابطال، وكيف يصبر الشجعان وان أودى بهم الصبر الى حتفهم، وكيف تكون نتائج الصبر وحسن التدبير في الحروب، وكيف عاقبة الذين تتقطع قلوبهم جبناً، وتخور عزائمهم جزعاً

ولم يباشر في هذه الحرب قتالاً وانما كان ينقل على أعمامه أي يناولهم النبل أو يرد عنهم النبل . وكان ذلك كافيا لتمرنه على مواطن النزال، ومواقف القتال، وليس بخاف ان الاخذ بيد الناشيء الى معارك أبطال المباريات، ثم معارك أبطال المقابلات والمقاتلات، هو أعظم الوسائل التي تجعله أهلاً للمقامات العلى بين الرجال، حتى اذا أتاحه الله للاخذ بقوم الى سوح المجد والسؤدد والصلاح والفلاح، كان نعم الدليل الهادي، ونعم السائق والحادي

فلما بلغ خمساً وعشرين سنة عرضت عليه سيدتنا « خديجة » ان يخرج في تجارة لها الى الشام وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار وأشار عليه عمه بقبول ذلك وطلب له أضعافاً فرضيت وسار بتجارتها مع الركب الى الشام ومعه عبد لخديجة اسمه « ميسرة » فلما رجع بالبضائع اليها باعتها فربحت أضعافا وكان هذا بدء تاريخ جديد للسيدة « خديجة » معه